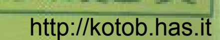


حسن الباش

موقف الإسلام من السحر والخرافة



دار حطين للدراسات والترجمة والنشر



موقف الاسلام
من السحر والخرافة

المؤلف: حسن الباش

الطبعة الأولى ١٩٩٣

حسن الباش

موقف الإسلام من السحر والخرافة

دار حطين

دار حطين للدراسات والترجمة والنشر

دمشق . شارع بغداد . قزازين هاتف ٤٥٤٢٨٣

الإهداء

إلى شيخي رجب ديب الذي زرع في قلبي أول بذرة للحب الحقيقي.
إلى أولادي وسام ومصطفى ومحمد ووصال وضياء وبيان مع الأمل بان يخدموا عقيدتهم ومبداهم.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة البحث

(١) درج بعض المغرضين من الغربيين وبعض أبناء جلدتنا على الاهتمام بالأساطير على اعتبارها حسب زعمهم المقياس الحضاري للشعوب والأدب الخالد الذي خلفته عقلية العصور الغابرة . وبعضهم الآخر لم يكن على دراية حقيقية بالقرآن الكريم فدرجه ضمن تراث الشعوب الأسطوري أو التراث اللغوي والبياني متناسياً أو متقصداً أن يبعد القرآن من دائرة التنزيل الالهي الذي يعلو على كل تراث وعلى كل ما سطرته شعوب العالم من تراث وأساطير وما شابهها .

ولما كانت الأمور تستدعي الرد على هؤلاء كان لا بد من البحث وايضاح العلاقة بين الأسطورة وبين المقياس الحضاري أولاً ومن ثم كان لا بد من تبيان موقف الاسلام من الأساطير واستناده على القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة .

ولعل ما درج عليه الباحثون هو التركيز على أساطير اليونان باعتبارها جمعت بين التأليف الأدبي والتصور الديني والخرافي . حيث اشتركت آلهة إلى جانب البشر في صنع الملاحم الأسطورية المعروفة وأما ما جاء به الاقدمون في منطقة الشرق فقد ارتبط بالوثنية وعبادة الأصنام ، ورأوا في ما جاء به الأنبياء أساطير تتحدث عن حياة بعد الموت وعن إلهية الآله الواحد . ومن هنا جاء الاسلام ليهاجم باطل العبادات الوثنية التي انتشرت في المنطقة وما لف لفها من عقائد خرافية ومعتقدات ليس لها اي صلة بالمنطق الواقعي والعقل المنفتح إنما اعتمدت على حس أسطوري وتراكمات عقائدية نفسية .

لقد انحرف الانسان عن ديانة التوحيد ، وأصبح للظواهر الطبيعية شأن في عقائده وكان طبيعياً أن يبعث الله الأنبياء والرسل والمصلحين ليعيدوا للشعوب عقائد التوحيد والطرق المستقيمة في حيواتهم . وكذا كان الشعب العربي قبل البعثة المحمدية الشريفة فقد سيطرت الجاهلية الدينية والعلمية على عقولهم وباتوا يرون في الأوثان والأصنام آلهة أو وسيطاً للاله وقصوا حولها اقوالهمن وسطروا في نفوسهم قصصاً خرافية متوهمة لا تخلو من انحراف عن حقائق العقائد وحقائق المنطق العقلي

لقد عرف البابليون وكذلك الكنعانيون وكذلك العبرانيون وغيرهم العقائد الوثنية وكان لا بد لهم – حسب تصورهم – من قصص وحكايات تدور حول معبوداتهم الوثنية تلك . وكان لا بد أيضاً من بعث الأنبياء ليرفضوا تلك الوثنية وبالتالي ليرفضوا ما دار من قصص وأساطير حولها وذكَروا الالهة وأنثوها حتى تتساوق مع طبيعة الجنس البشري ومن ثم كي تتوالد هذه الآلهة كالإنسان .

ووجدوا أنه لا بد من قوى خفية تتداخل حياتها بحياة الانسان كالجن والشياطين والغيلان وتخيّلوا أنها تسيطر على **الانسان** أحياناً وأن بعض الناس يستعينون بها ويقدرون بالتالي على **صنع** الخوارق . وتجاوزوا ذلك إلى جعل الجن شريكاً لله في **ملكه وخلقه** . وصنعوا حول ذلك قصصاً وأساطير وخرافات تتناقض مع أبسط أنواع التحليل العقلي . ورد عليهم القرآن الكريم ودحض مزاعمهم القديمة كلها . . وقالوا إن فرعون آلّه نفسه وظهر أنه فعلاً رب يعبد بالقوة والجبروت . وما هي أوقات متقاربة إلا ودُحر فرعون وسقطت دعواته وسقط جبروته لقد دفع فرعون وأمثالُه شعوبهم لعبادتهم وكانت تلك أسوأ ما في حياة الانسان من قهر واستعباد .

وعندما يطّلع أعداء الأمة والنهضة من غربيين باحثين ومستشرقين على جوهر الاسلام وما يمكن أن تؤول إليه الأمم لو أن نهضة اسلامية واعية بدأت تؤثر في العقول والنفوس والحياة السياسية والاجتماعية راحوا يروّجون لحضارة الشرق القديم ، وشغلوا المنطقة كلها من وادي النيل إلى وادي الفرات إلى جبال لبنان بمكتشفات أثرية أوّلوا زمنها وفلسفتها وراحوا يتحدثون عن أساطير غاية في الجمال الشعري وغاية في الملحمة الأدبية وما شابه ذلك . واستطاعوا إلى حد بعيد أن يهمشوا عقيدة الاسلام عن المجتمعات العربية

وانســاق وراء دعواتهـم بـاحثـون ومحبـون للحضــارة ومفتشـون عن أمجاد تاريخية عظيمة! ونسوا أن قيمة الحضارة بجوهر انسانها وليس بحجارتها ، بعقليتها وليس بحروبها وغزوها ومن هنا أدرك هؤلاء أن إبعاد المسلمين عن العقيدة لا يتم إلا بتنمية الشعور الاقليمي وهذا بدوره لايتم إلا من خلال التغني بالأمجاد الغابرة وأساطير الشعوب التي سكنت هذه البلاد ، وتحولت الأهداف والغايات الآنية إلى غايات وأهداف استراتيجية فبرزت دعوات إلى الفينيقية وأخرى للفرعونية وراحت تحارب الدعوات القومية العربية ليس لأنها قومية مخالفة بنظرهم لأهدافهم إنما لأنها والإسلام كيان واحد لا تحيا بدونه ولا تتقدم بدون تعاليمه الانسانية التقدمية . وهذا ما نجده في الفصل الأول من الكتاب .

(٢) وبسبب اجتماعي ونفسي وآخر بيئي طور الانسان تصوراته حول القوى الخفية وخلطوا بين القصص الشعبي والخوارق وراحوا يؤلفون حولها ويزيدون حتى بات بعضهم رهينة لأوهام وموجودات خلقها التصوّر وليس لها وجود . وتراكمت المعتقدات الخرافية حتى باتت تحكم العقل الشعبي في كل تفكيره وسلوك صاحبه . صنعوا حول الثور خرافة وحول الشمس والنجوم والقمر والحيتان والثعابين والكلاب وكل ما شاهدته عيونهم وما لم تشاهده .

ونزل القرآن العظيم ليبين لهم أن الأرض كروية تسبح في الفضاء ، مثلها مثل بقية كواكب الكون فلا ثور يحملها ولا زلازل تثيرها . وبين لهم أن الليل والنهار آيتان وكذلك الشمس والنجوم فلا حوتا يريد أن يبتلع القمر عندما يصيبه الكسوف ولا سقوط الشهب مرتبط بموت أحد البشر .

وربطوا بين بعض الخرافات والمعتقدات الخرافية والرزق والمعاش وخالفوا المنطق الديني الذي يرى أن الرزق من الله مع الأخذ بعين الاعتبار العمل والسعي من أجل ذلك .

وأداروا حول الموت خرافات لا تعدّ ولا تحصى ، وباعتباره شكل لغزاً لبني البشر منذ فجر التاريخ فقد حاول الانسان تفسير سرّه وراح يصنع من مخيلته قصصاً ومعتقدات حول الميت والروح وما بعد الموت فجاء القرآن ليصحح مفاهيمه ويقنعه بالحوار العقلي أن هذه الحياة رحلة وأن الموت ليس نهاية المطاف .

وليجعلوا للخرافة قوة الفعل والتأثير فقد ربطوها بالجن وما يقال عنه

من قدرة على فعل الخوارق والتحوّل من هيئة إلى أخرى فدحض القرآن كل ما كانوا يظنون ويتصورون . وأوضحت سورة الجن ماهيته وحدود مقدرته وأوضح أن بعض البشر الذين يستعينون بالجن هم خارجون عن الايمان بالله والاتكال عليه . وهم معتدون على ما يختص به الله من علم بالغيب وليس لهؤلاء أية قدرة على تغيير أمر طالما أن إرادة الله سبحانه وتعالى هي القادرة على تسيير البشر ورسم مستقبلهم .

وظن الظانون أن للجن قدرةً على تعليم الشعر فراحوا يهيمون في وديان الصحراء ليستلهموا من الجن عبقرية الفن الشعري . فوبخهم القرآن الكريم واستهزأ بهم وسخر منهم لأنهم يقولون ما لا يفعلون . فالشاعر منبوذ في المجتمع الاسلامي إن لم يكرس شعره في الدفاع عن العقيدة الاسلامية وبث القيم والأخلاق الحميدة بين الناس .

تحدثوا عن بساط للريح وعن فانوس للكنوز وعن خاتم يخرج منه جني مارد يلبي طلباتهم فراحوا يبحثون ويتعبون ويرهقون في البحث والتقصي دون فائدة تُرجى أو استفادة ملموسة أو غير ملموسة .

وكان لليهود دورهم التخريبي في نشر الخرافات الكثيرة وبثها بين الشعوب وما أكثر ما قيل عن الاسرائيليات التي تُدس في ثنايا العقائد والمأثورات وليس فيها سوى الخرافة وخداع عقول الناس .

وما تزال الخرافة تلعب دورها التخريبي في حياة الشعوب وتوقع بين الناس البغضاء بطرق مباشرة وأخرى غير مباشرة . وغفل الناس أو تغافلوا عن كون الاعتقاد بالخرافة والايمان بها ليس سوى اشراك بالله ونكران لجوهر العقيدة الاسلامية .

وكم حدثت مشاكل اجتماعية كالطلاق والثأر والقتل بلا مبرر ، وكل ذلك يعود إلى بعض المعتقدات التي آمن بها بعض الناس من اصحاب النفوس الضعيفة .

وكم بقيت فتاة جميلة دون زواج لا لسبب إلا لأن كعبيها بارزان ، وقد تكون صاحبة عقيدة قوية وملتزمة باسلامها التزاماً حقيقياً مشرّفاً .

وكم تحدثوا بالسوء على المرأة التي لا تنجب سوى البنات وبسبب إيمانهم بالخرافة دفعوا كثيراً من الأزواج إلى طلاق زوجاتهم أو معاملتهم معاملة سيئة . .

لقد نهى رسـول الله صلى الله عليه وسلم عن تلك الاعتقادات الخرافية التخريبيـة ونهى عن التشـاؤم والتطير لأن في ذلك مخالفة لما قدر الله لبني البشر .

قالوا عن طير ينادي بالثأر من قاتل القتيل فنشروا عادة الثأر السيئة التي راح ضحيتها أناس أبرياء . فعلمهم رسول الله أن لا هامة ولا غول . .

التشاؤم والتفاؤل لا يغيّران مما قدره الله للانسان . والمسلم ذو عقيدة راسخة يؤمن بقدر الله ويسلم امره له فهو المحيي وهو المميت ، وهو المسيّر ، بإرادته يكون كل أمر أولا يكون . . إن كل ذلك نجده في الفصل الثاني من هذا الكتاب .

(٣) وخدعوا النـاس واسترهبوهم بوسـائل السحر وفنونـه لعلهم يستعلـون عليهم ويستعبدونهم ويبرزون قواهم . صدّقهم الجهلة فربطوا شؤون حياتهم بالسحر وتركوا العقيدة دون أن ينظروا إلى جوهرها الذي يرفض الخداع واستعباد النفوس والعقول . ويرفض القرآن السحر وكذلك السنة الشريفة لأن فيه ضرراً ما بعده ضرر . فإن زعم الساحر أنه يشفي من الأمـراض فـإنـه يخلط الجهل بـالدواء فبدل أن يشفي الجسد يزيد فيه داءً ومرضـاً . ويفسد العقيدة برد الأمور لغير الله . وربطوا ما زعموا من سحر بسير الكواكب ومطالعها وما علاقة كوكب لا حياة فيه بنفوس البشر؟ ما شأن زهرة أو مريخ بمرض فلان أو فشلـه؟ لكن الصناعة لا بد أن تكتمل خدعتها فقالوا أحاديث في مطالع النجوم لا يقبلها منطق ولا دين .

وربطوا السحر بالشياطين والجن وليس لهما سلطان على بني البشر . ولا سيمـا المـؤمن الذي آمن بربـه حق الايمـان فكـادت الشيـاطين تفر منـه وتتحاشـاه . ولن يقدر على مؤمن مهما بلغ سحره من قوة طالما أنه مع الله والله معه .

قـالـوا بعـزة فرعون سينتصرون وقـال مـوسى عليـه السـلام بعـزة اللـه ستندحرون وما عزة فرعون الانسان المخلوق المحدود أمام عزة الله الخالق المكوّن؟ ولو كان موسى ساحراً لما غلبهم لكنها حقيقة المعجزة الالهية . ليست هي خدعة كخدعتهم فلما أدركوا ذلك فروا ساجدين لرب موسى . وزعم بعض الناس أن كتب السحر ما تزال موجودة ويتناقلون بعضها في الأسواق الشعبية وما هي إلا هرطقات لا ثمن لها ولا قيمة ولو كانت فعلاً ذات قيمة لما بيعت على

الأرصفة وجوانب الطرق بأبخس الأثمان . ولو كان السحر حقاً يصنع شيئاً لاستطاع العاملون به أن يكونوا به أكثر الناس غنى ولما احتاجوا من الناس أجراً على ما يصنعونه من أوراق وطلاسم يوحون بها أنها ستفعل فعلها لدى الناس .

وقد أوضحت الشريعة الاسلامية أن لكل داء دواء وحذرت من استخدام الخبيث في مداواة أي مرض . فكيف يداوى المرض بدواء خبيث نجس؟ وهل يصح أن أقضي على الخبث بخبث يزيد عليه؟

ثم زعموا أنهم يعرفون الغيب وبذلك يتجاوزون حتى حدود الأنبياء الذين اختارهم الله واصطفاهم على الناس ونسوا أن محمداً صلى الله عليه وسلم كان لا يعلم الغيب ولو علمه لاستكثر من الخير كما جاء في القرآن الكريم . لكنهم أرادوا أن يكونوا أكثر كفراً فتعدوا على حدود الله وزعموا أنهم يعرفون الغيب ويكشفون عن المستقبل وهذا ما يبثه الفصل الثالث .

(٤) ووجد بعض الكهنة ومدّعو العرافة في الكذب على الناس مورد رزق لحياتهم ومعيشتهم فراحوا يزعمون المزاعم ويخدعون الناس باستعمالهم ألاعيب الخفة والتنجيم والضرب بالرمل أو المندل أو فنجان القهوة . ويقولون كلاماً لا يفهم ، يوحي للسامع أنه كلام جن أو شيطان فتخذع نفسه ويخدع بصره . والأغرب من ذلك أن بعض من استهوتهم صنعة التنجيم يصدقون ما يقوله المنجم بشأن الزواج أو الولادة أو الطلاق وكلها أمور إن لم ترد إلى شريعة الله فهي كفر وضرر وإفساد للمجتمع . ويوردون بعض الأدعية وبعض آيات الكتاب المبين ليُظهروا أنهم يعملون بما أمر الله ولا يخرجون بعملهم عن جوهر العقيدة ، وكل ذلك ليزيدوا الثقة لدى روادهم من ضعاف الايمان وضعاف العقول . وبسبب من الجهل وقتل الوقت فقد انتشر التنجيم بالفنجان وصارت النساء ترتاد احداهن لتنجم لها وتكشف عن أسرارها وما يخبئه المستقبل لها . وانساقت النساء وراء ذلك جاهلة أو متجاهلة موقف الشريعة من قتل الوقت أولاً وموقفها من التنجيم ثانياً . فبدل أن تتفرغ المرأة لتربية أطفالها تربية صالحة صاروا يعيثون في الحارات فساداً ومن ثم يتشردون وأمهاتهم تجلس جماعات جماعات تفتشن في فناجين القهوة عن الحظوظ والمستقبل .

وغلب على بعض الناس هوسٌ في البحث عن كنوز الذهب والفضة

وصدقوا ما زعم بعضهم من أنها مرتبطة بالجن وبالحراس الشيطانيين فراحوا يكدون ويتعبون ويرجعون بخفي حنين . وبسبب فشلهم المستمر راحوا يشيعون القصص الخيالية حول ما لا قُوه وما لاقاه غيرهم من أهوال ومخاوف ليس لها أساس من الصحة .

إن الشعوذة التي تنتشر اليوم في عصر الذرة ليست إلا دليلاً على ضعف العقائد لدى الناس أو ليست إلا دليلاً على أن العقائد جميعها سوى عقيدة الاسلام باتت رهينة الانحراف والتشويه . وكم سمعنا ونسمع عن مشعوذ في هذا البلد أو ذاك رغم أنه يعتبر من البلدان المتقدمة في صنع الكومبيوتر أو الصواريخ والمركبات الفضائية وسنرى ذلك مفصلاً في هذا الفصل من الكتاب وهو الفصل الرابع .

(٥) ولما كانت المعجزة خرقاً لقوانين البشر وفوق تصوراتهم ظنوا أنها سحر فخلطوا بينهما لكن الأنبياء الذين خصّهم الله بمعجزات معيّنة أوضحوا لأقوامهم أن المعجزات نابعة من ارادة الله وأمره وليس لنبي فضل فيها إنما هو الوسيلة التي بها طرح المعجزة ، ولأجل تثبيت الإيمان في نفوس من آمنوا ودحض مزاعم الذين كفروا واستكبروا . وجاء كل نبي بمعجزة الله على حسب زمانه ومعتقدات ذلك الزمن . غير أن الله سبحانه خص رسول الله صلى الله عليه وسلم بمعجزة فاقت كل المعجزات وتجاوزت كل تصور . لقد اسرى إلى المسجد الأقصى ثم عرج إلى السماء . ورأى من آيات الله ما لم يحظ به نبي قبله . أما معجزة القرآن فهي الخالدة إلى يوم القيامة قائمة تتحدى بلغته وفصاحته وبيان الغيب من خلال بعض آياته وكشف الماضي البعيد الذيلا يمكن كشفه إلا من خلاله .

ورغم ذلك كله زعم بعض الزاعمين أن القرآن سحر ، وشتان بين ما يقولون ويدعون وبين الحقيقة الدامغة ، إن المعجزة ترتبط بالخالق عزوجل ولا ترتبط بالبشر وهذا هو الفرق بينها وبين السحر . وقد كان لزاماً علينا توضيح ذلك من خلال فصل أخير من هذا الكتاب حتى نظن بعملنا الظنون الحسنة رغم تقصيرنا الدائم أمام عظمة الخالق .

﴿ اللهم إن أصبنا فإننا لا نبغي سوى رضاك عنا وإن أسأنا اغفر لنا يا ربنا فنحن لا نحتمل غضبك علينا إنك أنت الغفور الرحيم ﴾

والحمد لله رب العالمين.

حسن الباش

الفصل الأول

الإسلام والأسطورة

الأسطورة والتعريف :

التعريف المعجمي : جاء في المنجد في باب السين : والسطر جمعها أسطر وسطور واسطار وجمع جمعها أساطير ، وهي الصف من الشيء كالكلمات والشجر . يقال كتب سطراً وغرس سطراً من بنائه ، والسُطُر الأقاويل المنمّقة والمزخرفة . والأسطورة الحديث الذي لا أصل له ، ويقال (إن هذا إلا أساطير الأولين) أي مما سطروا من أعاجيب أحاديثهم[1] يميز أحد الاستخدامات الخاصة بين الأسطورة والحقيقة التاريخية وينطوي على القول بأن كل ما يتسم بطابع أسطوري غير جديرٍ باليقين . وهذا المعيار كما يقول صموئيل هنري هوك هو وظيفي . فالأسطورة نتاج المخيلة الانسانية تنبثق من موقف محدد لتؤسس شيئاً ما ويمكن تمييز الأنماط التالية من الأساطير :

(١) أسطورة الطقس Ritual Myth: . وهي مجموعة النشاطات التي تمارس وتنفذ من قبل الكهنة في المعابد ، والأسطورة في الطقس تتولى سرد القصة التي يجري تمثيلها فتصف الموقف .

(٢) أسطورة العبادة Cult Myth وقد عرفت في بني اسرائيل وتطور ديانتهم[2] ينفذها مجموعة من الناس مترافقة بالتلاوة الجماعية لنصوص من التوراة التي تروي حوادث تاريخية معينة .

وهناك أنماط من الأساطير التي تعارف عليها الباحثون والمختصون ، وتتفق جميعها على أن الأسطورة بشكل عام قصة أو حكاية يختلط فيها

الخيـالي بـالواقعي وتنتشر لأسباب ذاتية أو لأسباب تتعلق بالتأثير والتأثر . وليس هنـاك من تنـاقض بين التعـريف القـاموسي والتعريف الاصطلاحي . فالأسطورة الحديث الذي لا أصل له . وكل ما يتسم بطابع أسطوري غير جدير باليقين .

وإذا مـا طـالعنـا مجمل الأسـاطير التي وصلتنـا إن كـانت يونـانيـة أو رومـانيـة أو شرقية وجدناهـا جميعها غير جديرة باليقين بسبب خلطها بين التأليف الخيالي وبعض أجزاء الواقع .

وقد خلطت الأسطورة بين الخيال والنص الأدبي من جهة وبين المعتقد الديني من جهـة أخـرى . . لقد اعتبرهـا بعضهم فناً أدبياً أمثال (فريد فيليب) فهي في نظره نوع من الابداع الأدبي الذي ظهر على شكل جزئيات متفرقة . ثم تـرابطت فيمـا بينهـا . وشكلت تكـامـلاً في الأجـزاء التي ظهـرت على شكل أسطـورة . . . وتبـرز المدرسـة الفـرنسيـة التي تـرى في الأسطورة شيئاً من التـاريخ . لقـد تنـاولت أسطـورة الشعب الفـرنسي ووضعت تعـاريف محددة ، تتطـابق مـع وجهـة النظر الفرنسية التي ترى في الأسطورة رؤية تتناسب مع تاريخها وشخصيات هذا التاريخ .

أما المدرسـة البريطانية فقد خلطت بين الانثروبولوجيا (علم الانسـان) وبين علم الآثار وراحوا يمدون الدراسات بتعاريف تختلف ورؤى تتغاير .

خرج الدكتور (دي ريجمون) من المدرسة الفرنسية بتعريف للأسطورة في كتاب له بعنوان (الحب والغرب يقول فيه (يمكن أن نقول بصفة عامة : إن الأسطـورة قصـة أو حكـايـة رمزية بسيطة ومؤثرة تلخص عدداً لا ينتهي من المواقف المتشابهة قليلاً أو كثيراً . أو بالمعنى الضيق للكلمة تترجم الأسطورة قواعد السلوك عند الجماعة الاجتماعية أو الدينية بعينها ، وتنتمي بالتالي إلى العنصر المقدس الذي تكونت حوله هذه الجماعة .

والأسطورة لا مـؤلف لهـا بعينـه ويتعين أن يكون أصلها غـامضـاً وأن يكون معناهـا نفسه غـامضـاً إلى حدٍّ ما ولعل أعمق سمات الأسطورة أنها تتمكن منا رغماً عنا)[٣]

ويرى الباحث الفرنسي إلياد[٤] في كتابه (جوانب من الأسطورة) أنه من الصعب تعريف الأسطورة تعريفاً يقبل به كل العلماء ومع ذلك فإنه يضع شبه تعريف يقول فيه (تروي الأسطورة قصة مقدسة وحدثاً وقع في الزمان الأول ـ

زمن البدايات الخرافي) ـ يتم بفضل الكائنات الخارقة للطبيعة . .

ويرى بعضهم أن الأسطورة تقدم تفسيرات لعلل التغير الحادث والكائن في الظواهر الكونية وعلاقة هذه الظواهر وعللها الغيبية بالانسان . وهي تدور حول ما أطلقوا عليه مأساة القدر ومحوره ، وفشل الانسان وعدم قدرته على تحقيق هذا الفعل من الناحية الثانية ، ويرى آخرون أن الأسطورة أداة للتعبير عما يمكن أن يحدث بالاتجاه العام . . فهي على الرغم مما تحويه من عنصر الخرافة عبارة عن مخلوقات غريبة ووقائع مستحيلة تصبح في مجمل الموقف الذي تفرضه من خلال الشخصيات التي تنوء بحمل هذا الموقف(٥)

ويرى بعضهم أيضاً أن الأسطورة عبارة عن قصص حكيت عن بعض الشعائر وطقوس اختفت أو في سبيلها إلى الاختفاء . . فهي لا تزيد عن كونها مناسك منطوقة(٦)

ولعل أكثر التعاريف اتفاقاً بين العلماء والباحثين يرى (أن الأسطورة قصة أو مأثور يحمل بالطبع والضرورة سمات العصور الأولى والقديمة مفسرة معتقدات الناس بإزاء القوى العليا والسماوية آلهتهم وأنصاف آلهتهم (أبطالهم) وخوارقهم ومعتقداتهم الدينية(٧)

ما المقصود بأساطير الأولين؟

وردت كلمة أساطير في تسعة مواضع من القرآن الكريم

١ ـ قال تعالى في سورة الأنعام الآية ٢٥ ﴿ **ومنهم من يستمع إليك وجعلنا على قلوبهم أكنّة أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً وإن يروا كل آية لا يؤمنون بها حتى إذا جاؤوك يجادلونك يقول الذين كفروا إن هذا إلا أساطير الأولين** ﴾

٢ ـ ويقول تعالى في سورة الآنفال الآية ٣١ ﴿ **وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلا أساطير الأولين** ﴾

٣ ـ ويقول تعالى في سورة ـ المؤمنون ـ الآيات ٨٠ ـ ٨١ ـ ٨٢ ـ ٨٣ ﴿ **وهو الذي يحيي ويميت وله اختلاف الليل والنهار أفلا تعقلون ، بل قالوا مثل ما قال الأوّلون قالوا أإذا متنا وكنا**

تراباً وعظاماً أإنا لمبعوثون . لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا من قبل إن هذا إلا أساطير الأولين ﴾

٤ ــ وقال تعالى في سورة النحل الآية ١٦٧ وما بعدها **﴿ وقال الذين كفروا أإذا كنا تراباً وآباؤنا أإنا لمخرجون ، لقد وعدنا هذا نحن وآباؤنا من قبل إن هذا إلا أساطير الأولين ﴾**

٥ ــ وقال تعالى في سورة النحل آية ٢٤ **﴿ وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم قالوا أساطير الأولين ﴾**

٦ ــ وقال تعالى في سورة الفرقان الآيتان ٤ ــ ٥ **﴿ وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون ، فقد جاؤوا ظلماً وزوراً وقالوا أساطير الأولين ، فهي تملى عليه بكرة وأصيلا ﴾**

٧ ــ وقال في سورة الاحقاف الآية ١٧ **﴿ والذي قال لوالديه أفٍ لكما أتعدانني أن أُخرج وقد خلت القرون من قبلي ،وهما يستغيثان الله ويلك** آمن إن وعد الله حق، فيقول ما هذا إلا أساطير الأولين ﴾

٨ ــ ويقول تعالى في سورة القلم الآية ١٥ **﴿ وإذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين ﴾**

٩ ــ ويقول في سورة المطففين ــ الآيات ١١ ــ ١٢ ــ ١٣ **﴿ الذين يكذبون بيوم الدين ، وما يكذب به إلا كل معتد أثيم . إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين ﴾**

في مجمل الآيات السابقة يستند السياق على حوار بين طرفين طرف يدعو إلى الإيمان بالله وعدم الاشراك به وطرف يتهم الداعي إلى الله بأن ما يقوله ليس إلا أساطير الأولين.

في الآية الأولى حديث عن حوار بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين مشركي قريش . **فمن هؤلاء المشركين من يستمع إليك يا محمد وقلبه مغلق وأذناه مغلقتان فإذا ما تحدثت عن آية من آيات الله وبرهان يثبت وجوده لا يؤمنون بها وإذا جاؤوا يجادلونك بما تقوله قالوا إن ما أتيت به من كلام الله هو أساطير الأولين**

فهذا في السياق العام . مع أن الخاص كان المقصود به بعض الأشخاص المعروفين في بداية الدعوة الاسلامية ونزول الوحي بالقرآن الكريم . وما ورد من قصة الحوار حول ذلك هي أن زعماء قريش المشركين كأبي جهل والوليد

ابن المغيرة والنضر بن الحارث وعتبة وشيبة وأبي سفيان وأمية حين اجتمعوا يستمعون القرآن من النبي صلى الله عليه وسلم وهو لا يعلم باستماعهم، فقالوا للنضر وكان يقرأ تاريخ الفرس والرومان – يا أبا قتيبة ما يقول محمد؟ قال لا أدري غير أني أراه يحرك لسانه ويقول أساطير الأولين مثل ما كنت أحدثكم عن القرون الماضية، فقال أبو سفيان إني ارى بعض ما يقول حقاً فقال أبو جهل: كلاّ لا تقر بشيء من هذا، الموت أهون علي من هذا

وأساطير الأولين: أكاذيب واباطيل الأمم السابقة وأخبارهم وأقاصيصهم.

هذا وقيل في معنى أساطير الأولين إنها الترهات وهي عند العرب غامضة ومسالك وعرة مُشكلة والآية ٣١ من سورة الأنفال تتحدث عن نفس القصة.

وبشكل عام تدل الآيات على أن بعض العرب كان قد اطلع على خرافات الفرس والروم والأقوام السابقة من خلال قراءة كتبهم وملاحمهم وحكاياتهم الشفاهية وتراثهم المكتوب وغير المكتوب. ولعل بعض العرب حفظ أساطير وحكايات عادٍ وثمود والفراعنة وما اختلط بأساطير الفرس من مأثورات الآشوريين والبابليين واليمنيين.

وهنا يجدر بنا أن نسأل. هل هناك تشابه بين ما جاء في القرآن الكريم وما جاء في أساطير الأولين حتى ظن العرب أن ما نزل على رسول الله مشابه لما عرفوه عن أساطير الأولين؟

في القصة السابقة لم يكن النضر على يقين أن ما سمعه من قرآن هو شبيه بما حفظه عن الروم والفرس فقوله لا أدري يؤكد عدم جزمه أو يقينه أن هناك تشابهاً ثم إن قول أبي سفيان يؤكد الاختلاف بين ما يقوله القرآن الكريم وبين ما عرفه رفيقه النضر عن أساطير الروم والفرس.

وكلام المشركين يقصد به اهانة رسول الله صلى الله عليه وسلم وإثارة الشك حول ما نزل عليه من القرآن الكريم ودليل ذلك قول أبي جهل لا تقل بشيء من هذا.. الموت أهون علي من هذا. أي أهون من قولك إني أرى بعض ما يقول حقاً.

أما في الشاهد السابع فيتعلق الأمر بمسألة البعث بعد الموت فقد اعتبره بعضهم من أساطير الأولين أي من خرافات الأولين الذين قالوا إن بعد الموت

حياة . ومن قال ذلك هم الأنبياء الذين سبقوا رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكانت أقوامهم ترفض الايمان بالبعث بعد الموت .

على أية حال ما نجده من معاني الآيات الكريمة التي جاءت فيها كلمة أساطير لا تقف موقفاً عدائياً منها كموقف القرآن من الأوثان والأصنام والمعتقدات الجاهلية التي أنشأوا حولها أساطير وأوهاماً كثيرة. في هذا الاطار يتسارع إلى الذهن سؤال لماذا لم يهاجم القرآن الأساطير أو يقف منها موقفاً عدائياً واضحاً .

الواضح ان عودتنا إلى التعريف اللغوي للأسطورة يبين أن الأسطورة جمعُ جمعٍ لكلمة سطر وما سطره الأولون أطلقوا عليه اسم الأسطورة . والقرآن ليس شبيهاً بما سطر هؤلاء الأولون . إنما هو كتاب الله وكلماته ، نزل بالحق وخاطب العقل والمنطق وحاور الانسان ليقنعه بالإيمان من خلال الآيات الكونية التي تعتبر مفتاح كل علم ومن خلال الحديث عن الغيبيات الماضية والمستقبلية التي تُعجِز أي مخلوق على أن يأتي أو يعرف مثلها .

غير أن النظر في الآيات القرآنية الأخرى والتي تحدثت عن المشركين الذين عبدوا الأوثان والأصنام تبيّن نوعاً من الطقوس المنافية للعقل والمنطق والمختلطة بحكايات وقصص أطلق بعضهم عليها الأساطير . لما فيها من مخالفة للحقيقة ومقاربة للأوهام .

وحين نحاول المقارنة بين معنى كلمة ميثولوجيا وكلمة أساطير نجد شيئاً من الفروق بينهما فالأولى أطلقت على الأساطير الملحمية اليونانية التي تتداخل فيها الديانة بالخيال والتوهم . فهي تحوي شيئاً من الغيب غير المرئي وكلمة ـ ميثو ـ التي أصلها (ميتا) تدل على الجانب الغيبي .

وما يطلق عليه الأسطورة لدى الغرب بشكل عام يرتبط بالحديث عن مجمع آلهة تضم عدداً كبيراً منها . وكل منها له مهمة من مهام التدخل في تكوين الواقع وتسيير حياة الناس أو الوقوف معهم أو ضدهم ، حسب ما يزعمون .

وكذلك ما ورد من ميثولوجيا كنعانية أو بابلية يعني تماماً ما يتعلق بالجانب الديني المرتبط بالجانب الالهي التعددي القريب من حياة البشر إلى حد ما مع اختلاط واضح بين مهمات آلهة متعددة ومهمات بشرية مرئية وملموسة .

وبغض النظر عن الرموز والانعكاسات النفسية والفكرية فإن هذه

الميثولوجيا حوت الجانب الأسطوري بالمفهوم الغربي ، وقد حاول الباحثون أن يطبقوا ذلك على ما جاء من ميثولوجيا الشرق القديم ، فأطلقوا كلمة أساطير على كل مأثورات الكنعانيين والبابليين والمصريين التي حوت الجانب القصصي أو الملحمي .

ولهذا السبب علينا أن نميز بين ما أطلق عليه العرب أساطير الأولين وما تعارف عليه العلماء والتراثيون وعلماء الانثروبولوجيا والميثولوجيا عندما وصفوا مأثورات اليونان والرومان بأنها أساطير .

لقد ارتبطت أساطير تلك الشعوب بعبادة القوى الطبيعية وبعض القوى الغيبية كالجن والأرواح وما شابه ذلك إلى جانب ارتباطها بتمثيل صنمي وثني لها ، له اشكال عادية محسوسة رامزة لتلك القوى .

والقرآن الكريم هاجم هذا النمط من الوثنية وما أحيط حولها من حكايات وخرافات مخالفة لديانة التوحيد . ومخالفة لطبيعة المنطق العقلي الذي لا يتقبل الأمور ببساطة ورضوخ أعمى .

لقد تحدث القرآن عن عقائد الشعوب القديمة التي وجدت منذ فجر الحياة الآدمية على وجه الأرض ، فبين عاداتها وأفكارها وطقوسها فحاورها من خلال الأنبياء والرسل مبيناً ضلالها ودافعاً لعقولها من أجل الحوار والتيقن من حقيقة الخالق التي تتعارض مع ما تصوروه وما تخيلوه أو صنعوه .

الأسطورة والشعر حدود التعامل القرآني معها :

يقول تعالى في سورة الشعراء . الآية ٢٢٤ ـ ٢٢٥ ـ ٢٢٦ والشعراء يتبعهم الغاوون ألم تر أنهم في كل وادٍ يهيمون، وإنهم **يقولون ما لا يفعلون ﴾**

فمن المعروف أن الشعراء هم الأكثر قرباً من كتابة الأساطير . فأساطير اليونان نسبت للشاعر هوميروس . وأساطير الرومان نسبت للشاعر فيرجيل . . والشاهنامة نسبت للشاعر الفردوسي . والشعراء الجاهليون قالوا الشعر وربطوه بالجن والمخلوقات غير البشرية .

وقد هاجم القرآن الشعراء لأنهم لا يقولون الحقيقة ويتوهمون ما يتنافى

مـع الـواقع والمنطق . فـالمـلاحـم الأسطـوريـة تستند إلى خيال ابداعي شعري جميل إلا أنها تستند في هذا الخيال على الشطط في اللاواقعية المنافية للمنطق والتخيل العقلي .

إن هذه الملاحم الأسطورية تخيلت عوالم غيبية تحتاج لشواهد مبصرة ومثبَتة وملموسة ، تتخيل آلهة تتصارع بسبب تعارض وتضارب مصالحها . وهي غير موجودة على أرض الواقع . إنها غير موجودة إلا في خيال الشعراء الذين ابتدعوها وصنعوها مع كل الجمال القصصي الملحمي الموجود في الألياذة أو جلجامش ، ومع كل ما فيها من رموز وإيحاءات وظلال إلا أنها تظل في المنظور الديني مخالفة لطبيعة الواقع البشري الذي ينطلق دوماً بعقله للتحليل والتفسير والاستقراء ومن ثم الاستنتاج لقد جاء القرآن الكريم داعياً أصحاب العقل للسؤال والتحليل والانفتاح نحو الآفاق الكونية والنفسية وحتى الجسدية ودعا إلى رفض الاعتماد على التخمين الوهمي والظن . وفك حيرة البشر جميعاً في آيات واضحات المعنى داعية للحوار والقبول بعد التيقّن .

لقد كان الشعراء الجاهليون أحد المصادر لتلك الخرافات والحكايات المرتبطة بالوثنية وقد تحدث غالبيتهم من خلال أشعارهم عن الأوثان والأصنام وما أحيط حولها من أحاديث مركبة تركيباً وهمياً . وقد تناقل أهل مكة جيلاً عن جيل قصصاً كثيرة مرتبطة بأنواع الآلهة التي نصبوا تماثيلها حول الكعبة . وراحوا يقدمون لها القرابين والمأكولات وكل ذلك ينم عن جهل واضح بحقيقة المعبود والمقدس ، وقد لعب سدنة الكعبة إلى جانب الشعراء دوراً بارزاً في تضخيم الأحاديث والحكايات حول هذه الآلهة المتعددة وانتشرت بين القبائل والناس حتى صاروا يقولون الشعر فيها تمجيداً لها وإجلالاً لخوارقها المتوهمة .

من أين جاءت الأسطورة:

يتفق غالبية الباحثين على أن الأسطورة في نشأتها الأولى محاولة بريئة لتعليل مبهم غامض ، أو تفسير لظاهرة طبيعية لا يعرف لها سبب .

كان الانسان الأول محاطاً بكل غامض مبهم . وكانت الظواهر الطبيعية

التي تكتنف حياته سلسلة من ألغاز ، تعاقب الفصول . وموت الطبيعة في الشتاء . وعودتها إلى الحياة عند مقدم الربيع . الزلزال . العاصفة . الرعد . الحيوانات المفترسة المخيفة وعلى رأسها الحية . القبة السماوية . المرض والجوع والموت . فكانت الأساطير وكانت الملاحم الشعرية التي تتناول مولد الآلهة وصراعها . وكانت الخرافات والمعتقدات التي تدور حول حربه وصراعه ضد البؤس والشقاء ضد المرض والجوع والموت. والأسطورة تصدر عن العاطفة والشعور ، لا عن العقل الواعي . ولذا تقع الأسطورة في حيّز الشعر والخيال الشارد . وعلى مرّ الزمن يتناولها الكاهن والفيلسوف بالحذف أحياناً ، وبالصقل أحياناً أخرى . فلا تلبث طويلاً حتى تجد طريقها إلى مجموعة الأدب الديني والشعبي .(٨)

وعلى ما جاء في هذه الأجابة فإن أساطير العرب القدماء من كنعانيين وآشوريين وفراعنة وجاهليين صنعها الكهنة أو دوّنوها حسب ما تقتضيه الحاجة النفسية والدينية والمعتقدية لدى مجتمعاتهم .

بيد أن الفكر الانساني الحديث أراد أن يعيد منشأ الأسطورة إلى عدة أسباب باعتبار لغتها وطبيعة الخيال فيها ، أو باعتبارها مرتبطة بظواهر الطبيعة أو باعتبار الأسباب (الايتولوجيا) التي قدمتها الأسطورة لتفسير الظواهر ، أو باعتبارها تاريخاً يترجم الملاحظات الواقعية والتي انتقلت إلينا عن طريق تجارب الآخرين ، أو باعتبارها استمدت مادتها من الطقوس التي تراكمت وأعيدت ممارستها حتى أصبحت أسطورة .

وبشكل عام فإن الاجابة الأولى عن منشأ الأسطورة يشمل هذه الاعتبارات ويجمعها . فالأسطورة حكاية ونص أدبي . وابطالها من الآلهة المتعددة التي تتصرف أحياناً كتصرف البشر ، وأحياناً تقوم ببعض الأعمال الخارقة التي هي أشبه بالسحر أو المعجزة . بيد أنها تبقى في نطاق اللاواقعي واللامعقول .

ولتفسير موقف القرآن من الوثنية لا بد لنا من الوقوف على ما أحيط حول العبادات الوثنية عند شعوب المنطقة من قصص وحكايات وملاحم ، هي بالمحصلة ما أطلق عليه العلماء والباحثون كلمة أساطير .

يطالعنا القرآن الكريم بالحديث عن قصة نوح وقومه الذين عبدوا الأوثان . وحسب التسلسل القرآني في الحديث عن الأنبياء فإن نوحاً يأتي

بالمرتبة الثانية بعد النبي آدم عليه السلام . ولم يرد في كتاب الله عزوجل اي حديث عن عبادة الأوثان زمن آدم أو زمن أبنائه .

لقد بدأ الله سبحانه الحياة على الأرض بوجود نبيٍّ هو آدم حتى يدلل على أن الانحراف عن ديانة التوحيد جاء متأخراً ، وعبادة ظواهر الطبيعة والترميز لها بأشكال حجرية منحوتة ومرسومة جاء بعد بدء ديانة التوحيد التي نادى بها آدم عليه السلام .

وقد ورد ذكر أسماء الآلهة التي عبدها قوم نوح في القرآن الكريم عند قوله سبحانه وتعالى « في الآيات ٢٢ ـ ٢٣ ـ ٢٤ » ﴿ **ومكروا مكراً كباراً ، وقالوا لا تَذَرُنَّ آلهتكم ولا تَذَرُن وَدًّا ولا سواعاً ولا يغوثَ ويعوق ونسرا ، وقد أضلوا كثيراً ولا تزد الظالمين إلا ضلالاً** ﴾ فحسب نص الآية فإن هناك آلهة عبدها قوم نوحٍ إلى جانب الأوثان التي ذكرت اسماؤها فبعد جدال بين نوح وقومه قالوا له إنا لن نترك ما نحن عليه . وقد بيتوا بينهم ألا يتركوا عبادة آلهتهم .

غير أن القرآن الكريم لم يزد على ذكر اسماء الأصنام التي عبدها قوم نوح . ولم يرد اي حديث عما وراء هذه الأصنام من أساطير في كتاب قصص الأنبياء المسمى عرائس المجالس لأبي اسحق النيسابوري الثعلبي . ولا في كتاب قصص الأنبياء لعبد الوهاب النجار .

ولكن النسر كرمز لأحد الآلهة قد وُجد في العقائد الوثنية القديمة لاسيما المصرية والبابلية كما وجد وثنٌ على هيئة النسر في مكة حول الكعبة قبل فتح رسول الله (ص) لها وتكسير أصنامها وبشكل عام نرى أن بُعد قوم نوح عن عبادة الله الواحد ، وعبادة آلهة متعددة قد أودى بهم إلى الهلاك .

فما يعارض الوحدانية هو التعددية . والاثنتان على طرفي نقيض . فما ورد في عقائد الأقوام السابقة غير التوحيدية اعتمد على تجسيد الآلهة أو تشخيصها ، ومن الطبيعي أن عبادتها لم تأتِ من فراغ ، فقد أنشأ عابدوها حولها طقوساً وأساطير هي أقرب إلى الوهم والتخيل منها إلى الحقيقة والعقلية والمنطق .

وجدال نوح مع قومه يدور كله حول عبادة الله الواحد ورفضهم لهذه العبادة .

وفي سياق هذا الجدل نرى موقفين متعارضين تماماً . وموقف الحجة

الأقوى كان إلى جانب النبي نوح عليه السلام بينما الموقف الأضعف كان من جانب قومه يقول الله سبحانه في سياق الحديث عن نوح وجداله مع قومه:

ما لكم لا ترجون الله وقارا، وقد خلقكم أطوارا. ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا. وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا. والله أنبتكم من الأرض نباتا. ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجا والله جعل لكم الأرض بساطا. لتسلكوا منها سبلا فجاجا ◦ ١٣ ـ ٢٠

فهذا موقف نوح الذي يجادل مستندا إلى حوار عقلي يبرهن على حجته بدلائل مادية سخرها الله للبشر ، بينما يقفون موقف الضعيف المعاند . فلم يجادلوا مستندين على رد عقلي مقنع بل قالوا (لا تذرن آلهتكم . . .)

من خلال ذلك نستنتج أن الموقف القرآني من عبدة الأصنام هو موقف عدائي ، ولم يأت ذلك الموقف إلا محاربة للتعددية الآلهية من جهة ومحاربة للأساطير التي أُلِّفت حول تلك الآلهة ، والتي هي تدعو إلى ضلال العقل البشري وتخلفه .

وقد تعرض ابن الكلبي في كتابه الأصنام إلى ذكر الأصنام الخمسة التي عبدها قوم نوح وهي كما وردت في سورة نوح وَد . وسُواع . ويغوث . ويعوق . ونسر ، فقال إنها كانت موزعة على القبائل العربية .وقد قيل إن جنّي عمرو بن لحي أرشده إلى مكانها في شاطىء جدة وأهم ما تشير إليه هذه الأسطورة أن تلك الصنام أتت من خارج الحجاز . وإنها قديمة جداً . والصنم ورد في نصوص المسند على أنه إله المعينيين في جنوب الجزيرة العربية.

كما نُص على أنه إله قبائل عربية قديمة كثمود ولحيان وهما من عرب الشمال غير أن ما يهمنا هنا ما يفترض من أنه له علاقة بآلهة بابلية وبآلهة أقوام من الساميين(٩)

وينطبق هذا على الصنم نسر فقد وجد ذكره عند اللحيانيين في أعالي الحجاز وهو من أصنام الجنوب في العصر الجاهلي .

ويغوث كما ورد في الآية الكريمة صنم من أصنام قوم نوح وقد عبده بعض الجاهليين من قبائل مذحج ومراد . وقد قاتل أشراف مراد بطني (أعلى) و(أنعم) لأنهم استأثروا بالصنم يغوث وكانوا يحملون معهم يغوث أثناء الحرب . وقد انتصروا على منافسيهم وكانوا يشجعون أنفسهم قائلين . لا نفّر حتى يفر يغوث(١٠)

ويعوق عبده بطن من همذان قرب صنعاء . وكذلك نسر فقد كان يُعبد في أرض حمير وهو من أصنام قوم نوح .

وقد شخص العرب القدماء بعض الآلهة فقد جعلوا الصنم وَداً يُلقي التحية على عبدته فيقول الذبياني: حيّاك (وَدٌ) فإنا لا يحل لنا لهو النساء وإن الدين قد عزما .

ومع التشخيص والصفات الانسانية الأخرى التي خلعها الجاهليون على أصنامهم فإنهم لم يجعلوها من صنف البشر وإنما اعتقدوا أنها تمتلك قوى خارقة فجعلوها آلهة وارباباً(١١) على أية حال لم ترد تفصيلات أخرى غير التي ذكرناها عما صنعه الجاهليون من أساطير حول أصنام قوم نوح التي انتشرت بين قبائل العرب قبل الاسلام .

فقد عبدت أقوام أخرى الأوثان والأصنام ومثلت لها لقوى الطبيعة ومن تلك الأقوام عاد وثمود . وقد جاء القرآن على ذكر تلك الأقوام وما كانت نهايتها بسبب اشراكها بالله أو كفرها . وقد ذمّ القرآن معتقداتها . لأنها منافية للوحدانية من جهة ومنافية للعقل البشري المنطقي من جهة أخرى .

غير أن التفاصيل التي تحدثت عن الأساطير القديمة وجدناها في قصة النبي ابراهيم عليه السلام وعصره في مجتمعه الذي عاش فيه . ومنذ النبي ابراهيم بدأت تتضّح لنا الأساطير المرتبطة بعبادة الأوثان والأصنام ، لأنها صارت تتخذ منحى ملحمياً تارة وفلسفياً تارة أخرى .

ومن هنا كان الصراع قد احتدم بين ديانة التوحيد والعقائد التعددية التي انتشرت لدى البابليين والآشوريين وبقية الشعوب القديمة الأخرى .

ويزيد الصراع ايضاحاً ارتباط الملوك بالآلهة حسب تصور الشعوب القديمة. فالنمرود وجد في عصر ابراهيم وارتبط اسمه بالادّعاء بالألوهية، وعدد من الفراعنة ارتبطت أسماؤهم أيضاً بأساطير وعقائد تعددية . ومن حكمة الله في خلق النقيض للشر بعث في كل عصر نبياً أو رسولاً أو مصلحاً يحارب الأساطير وملوكها ، ويحارب من يدافع عنها .

والحديث عن ابراهيم عليه السلام في القرآن الكريم يمنحنا دلالات كثيرة حول ما عبده قومُه يقول تعالى في سورة الأنعام ٧٤ ـ ٧٥ ـ ٧٦ ـ ٧٧ ـ ٧٨ : ﴿ **وإذ قال ابراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناماً آلهة ، إني أراك وقومك في ضلال مبين . وكذلك نري ابراهيم**

ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين . فلما جنّ عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربي . فلما أفل قال لا أحب الآفلين . فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربي فلما افل قال لئن لم يهدني ربي لأكوننّ من القوم الضالين ، فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم إني بريء مما تشركون﴾.

ففي الآيات اشارة واضحة لكوكب من الكواكب ، ثم للقمر ، ثم للشمس . ومن الطبيعي أن تُصوَّر هذه الكواكب والشمس إما بطريقة الرسم على الصخور أو النحت حتى يُصنع الرمز المناسب لها . أو أنها تعبد مباشرة دون أن يرمز لها بشيء .

وتوجه ابراهيم للبحث عن إله ومن ثم نظره للكوكب ثم للقمر ثم للشمس يدل على أن هناك توجهاً دينياً في زمنه نحو عبادة هذه الكواكب .

وهناك في الأساطير البابلية المستندة على الأساطير السومرية تفصيلات كثيرة لتصور مبدأ الخلق ، والآلهة المتعددة ، وارتباطاتها بالإنسان ومسيرة وعيه في ذاك الزمن وحسب المصادر الدينية القديمة فإن ابراهيم عاش بداية حياته بين قومه في بلاد ما بين النهرين . وقومه على الأغلب لم يكونوا سوى الكلدانيين أو من يقاربهم ، وهؤلاء كانت لهم آلهتهم وأساطيرهم وأصنامهم التي ترمز لها .

وليس من مهمتنا في هذا المجال البحث في التاريخ والعقائد والملاحم الأسطورية بشكل مفصل ويكفينا أن نشير باختصار إلى مبدأ الأساطير البابلية وما جاورها مما صدر عن الشعوب الأخرى من تراث أسطوري .

فأهل بلاد الرافدين اعتقدوا كما اعتقد السومريون ، أن كبيرة الآلهة كانت وحدها ثم أنجبت ولدا وبنتاً . . آله السماء وآلهة الأرض ـ ثم حصل تزاوج بين ـ آن ـ وكي ـ فأنجبا بكرهما إنليل إله الهواء ، الذي استطاع أن يفصل أباه إله السماء عن أمه آلهة الأرض ثم استطاع هذا الإله أن ينجب ـ نانا ـ إله القمر و ـ أوتو إلهة الشمس ـ ثم خلق الانسان ليقوم بخدمة الآلهة .

هذا مختصر شديد لما تقوله الأسطورة السومرية أما ما أضافه البابليون فهو أن صراعاً يحدث بين الآلهة ، فيختارون من يترأسهم وأخيراً يوافقون أن يكون مردوخ (مردك المريخ) رئيساً بشرط أن يقضي على ما تسمى (الآلهة تعامت) . وفعلاً يتصارع معها فيقتلها ويسحق جيوشها ، ويستقر له

العرش فيخلق الأرض والسماء والحيوان والنبات والإنسان .

فإلى هذا الحد تقوم أسطورة عصر ابراهيم على تعددية الآلهة وعلى صنع الملاحم والأساطير التي جعلت الكواكب والنجوم آلهة ، وهذا بالطبع يعود إلى تصور بشري للمقدس والمعبود أما ما ورد في قصة النبي ابراهيم فهو يوضح موقفين متناقضين تماماً ، موقف يقوم على المحاورة العقلية ، وموقف يقوم على الجهل والتقليد والتسليم الأعمى .

ففي موقفه المبدئي يحاجج والده صانع التماثيل والأصنام ، ثم يُقدِم على تكسيرها ليبين لهم أنها لا تسمع ولا تضر ولا تنفع .

ومرة ثانية يسخر عقل ابراهيم من الجهل الذي غرقوا فيه حيث تساءل باستنكار موجهاً حديثه لتلك الآلهة الصنمية ﴿ **فراغ إلى آلهتهم فقال ألا تأكلون ، ما لكم لا تنطقون** ﴾ .

وهذه الآيات تدل على (أن قوم ابراهيم كانوا يقدمون الطعام لآلهتهم ولعل الكهنة كانوا يأخذونه ويوهمونهم أن آلهتهم رضيت عنهم فأكلت طعامهم)[١٢]

ثم يحاججهم في سورة الشعراء:

يقول تعالى:﴿ **واتل عليهم نبأ ابراهيم . . إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون . قالوا نعبد أصناماً فنظل لها عاكفين . قال هل يسمعونكم إذ تدعون . أو ينفعونكم أو يضرون . قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون . قال أفرأيتم ما كنتم تعبدون . أنتم وآباؤكم الأقدمون** ﴾[١٣]

فحتى يكون الموقف العدائي مستنداً على حجة منطقية . حاور ابراهيم قومه . وبين لهم أن آلهتهم لا تسمع ولا تنفع ولا تضر إنما وجدوا آباءهم يعكفون على عبادتها ، ولذلك تبرأ ابراهيم من عقائدهم بقوله: ﴿ **فإنهم عدو لي إلا رب العالمين** ﴾

وهذا بالتالي هو موقف الاسلام من أساطير هؤلاء واصنامهم التي صنعوا لها تلك الأساطير .

لقد رفض ابراهيم آلهة قومه لأنها متعددة وهو يؤمن بإله واحد ، ويدرك أن تعدد هذه الآلهة يخالف المنطق العقلي . ويدرك أن التعدد ذاته سيكون مآله النزاع وخراب الكون . يقول تعالى في سورة الأنبياء الآية ٢٢ ﴿ **لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون** ﴾ وآلهتهم

لا تنفع ولا تضر بل هي أحجار صماء وهو يعبد الله القادر على كل شيء يقول تعالى في سورة الشعراء ﴿ **الذي خلقني فهو يهدين ، والذي هو يطعمني ويسقين ، وإذا مرضت فهو يشفين ، والذي يميتني ثم يحيين ، والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين** ﴾ ٧٨ ـ ٧٩ ـ ٨٠ ـ ٨١ ـ ٨٢

ثم إن آلهة قومه لا تستطيع حتى الدفاع عن نفسها فكيف به لا يرفضها ويمقت من يعبدها . وفي نماذج أخرى من الأساطير نرى أن الأقوام السابقة قد أنثت الآلهة ، باعتبارها صاحبة الاخصاب والانجاب ، وهي رمز للأنوثة التي يشعر الانسان أنه بحاجة لها نفسياً وجسدياً . وقد توزعت هذه الآلهة بدءاً من الأم والبنات وانتهاء بالأب والاولاد جميعَ الأعمال الخلقية الكونية والأحداث . . وقد طور الانسان عبادتها وفلسف تلكَ العبادة وأحاطها بأساطير وملاحم وحكايات حتى غدت تراثاً ضخماً يؤرخ للماضي ، ويرسم للمستقبل .

فعند الكنعانيين ـ وهم من سكان شمال الوطن العربي أي في سوريا ولبنان وفلسطين ولا سيما في الساحل ـ تقول الأساطير إن كبير الآلهة المدعو (إيل) هو خالق السموات والأرض وخالق بقية الآلهة والبشر والحيوانات . وإيل هذا يتشابه مع الإله شمس عن البابليين . لكنه ومع تطور فلسفة العقائد الوثنية يصبح إيل جوهر الإله حسب ما قاله بعض العلماء والباحثين .

وأن الأسطورة الكنعانية تقول إن (إيل) كلف ابنه (بعلاً) بمتابعة خلق الكون وهذا البعل يتصارع مع التنين المدعو لوياثان وهو ذو رؤوس سبعة ، ينتصر عليه ثم يتفرغ لخلق ما تبقى من المخلوقات .

وتنتشر عبادة بعل في وسط الشعب الكنعاني وتمتد حتى تشمل بعض المتهودين زمن الملك آخاب بن عمري الذي تَبِع زوجته الكنعانية إيزابيل وراح يقيم المعابد لبعل ويذبح له القرابين .

في زمنه يبعث الله نبياً ليحاور الوثنيين ويبين زيف عقائدهم وهو النبي إلياس وقد وردت المحاورة بين النبي الياس وبين القائمين على عبادة بعل في سورة الصافات . حيث يقول تعالى: ﴿ **وإن الياس لمن المرسلين(١٢٣) إذ قال لقومه ألا تتقون(١٢٤) أتدعون بعلاً وتذرون أحسن الخالقين(١٢٥) الله ربكم ورب آبائكم الأولين(١٢٦) فكذبوه فإنهم لمحضرون(١٢٧) إلا عباد الله المخلصين(١٢٨)** .

وقد جاء في الأخبار التي تناقلها المفسرون المسلمون أن النبي الياس

دحض مزاعم المتهوّدين الذين انساقوا وراء عبادة (البعل) ، وذلك من خلال تحدّيه لهم ولكهنتهم الذين ادّعوا أن الإله بعل سوف يصنع لهم معجزة بحضور أربع مئة منهم والنبي الياس لكن بعلاً لا يستطيع فعل شيء فيسخر النبي منهم ، ويُريهم معجزة الله التي تفند مزاعمهم* لكنهم يلاحقونه فيهرب من وجههم إلى بعلبك ويظل متخفياً حتى يزول مُلك آخاب بن عمري ملكهم .

وبعل كما أسلفنا كبير الآلهة عند الكنعانيين بعد إيل ، ومن صفاته أنه ينزل من قصره السماوي ويصارع البشر بيديه . ويتزوج من أخته الآلهة عناة فتنجب له ثوراً . وله ثلاث بنات يسكنّ في قصره الذي بني على مرتفعات جبل صفون .

والأساطير التي تتحدث عن بعل عبارة عن لوحات شعرية عثر عليها في أوغاريت وفسر ما فيها العلماء والباحثون .

ويرد في مجمل أساطير الشرق العربي وجود آلهات إناث مثل عناة وسميراميس وعشيرة . وعشتار . وبغض النظر عن التفسير الرمزي للآلهة المؤنثة إلا أنها تلعب دوراً مهماً في مهمة الخلق ويتداخل عملها بأعمال الذكور من الآلهة وذلك حسب ما ورد في أساطيرهم . وقد اعتقد بعض الجاهليين أن الملائكة هم بنات للإله ، ومرجع ذلك أنهم عرفوا في أساطيرهم آلهة مؤنثة كالتي سبق ذكرها .

يقول تعالى في سورة الأنعام الآية ١٠٠ : ﴿ **وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم وخرقوا له بنين وبنات بغير علم سبحانه وتعالى عما يصفون** ﴾

ويقول تعالى في سورة الصافات الآيات ١٤٩ ـ ١٥٠ ـ ـ ١٥١ ـ ١٥٢ ـ ١٥٣ ﴿ **فاستفتهم ألربك البنات ولهم البنون ، أم خلقنا الملائكة إناثاً وهم شاهدون ، ألا إنهم من إفكهم ليقولون ، ولد الله وإنهم لكاذبون اصطفى البنات على البنين** ﴾ .

لقد وردت هذه الآيات في سورة الصافات وهي السورة التي تحدثت عن قصة الياس وحواره مع عبدة ـ الإله الكنعاني بعل . ومر معنا سابقاً أن أسطورة بعل تقول إن له ثلاث بنات .

---

* وردت القصة أيضاً في التوراة بشكل مفصل.

وإذا مـا أدركنـا الـرابط الفكـري بين آيـات السـورة لعرفنـا أن الآيـات الأخيـرات جـاءت لتدحض زعم من قـالـوا إن للإلـه بنات وبالتـالي فـالقرآن هنـا يدحض معتقدات من عبدوا بعـلاً لأنـه لا يعقل أن يكون لـلإلـه المنزه بنـات أو أولاد . فبعل هذا ليس بإله إنمـا هو صنم من صنع الانسان ، ومـا يدور حولـه من قصص وأسـاطير ليست إلا من صنع خيال الانسـان في فترة من فترات التـاريخ .

أما الأسـاطير الفرعونية فإنها تقول: إن الإلـه رع كان مزدوج الطبيعة ــ هو ذكـر وأنثى وقد تـولد منـه الخلق . فهـو منهـم بمثـابـة الأب والأم . ويـرى المؤرخ (بريستد) أن عقيدة الإله (فتـاح) هـي أسـاس مذهب الخلق عند الاغريق الأولين فلا حـاجة للخـالق إلى أداة الخلق سـوى الأمر والمشيئة . ويستدل من الصلوات الأتونية أن الخـالق في الأسطورة الفرعونية (أخنـاتون) تركزت على أن الله هو الحي المبدي للحياة . الملك الذي لا شريك له فـي ملكه . خـالق الجنين والنطفة التي ينمو منـها الجنين ، ويرمز لهذا الإله بقرص الشمس . ولا يتعدى رمزه ذلك . والنـاس جميعهم خلقوا من فمه عندما لم تكن سمـاء أو أرض .

وتقـول الأسطـورة الفرعونية . في البدء لم يكن هنـاك غير محيط أزلي مظلم وهـو (توق) برز منه إله الشمس بقدرة فيه . وكـان هو نفسه رع تمـاماً كمـا كـان هو نفسـه الإله المبدئي (أتوم) مقترنين معاً . وبقوتـه المذكرة أي الاستمنـاء الداخلي اعتلى رع أتوم حجراً مدبباً من أعلاه يدعى (بنبن) ثم خلق من نفسه وبطريقة مـادية أول زوج من الآلهة همـا (شو) إله الهواء و(تفنوت) آلهة النـدى ، ومن هذين وُلد (جب) إله الأرض و(ونوت) آلهة السمـاء .

ومن مفردات الأسـاطير الفرعـونيـة أن الفرعون الملك هـو نصف إلـه تـارةً أو إله كـامل تـارة أخرى بـاعتبـاره ابن رع الاله الأكبر . . وقد تسلط ملوك مصر الفراعنة على الشعب بسبب ادعـائهم أنهم آلـهة أو أنصـاف آلـهة .

لقد سقنـا هذه النتف من الأسـاطير الفرعونية حتى نرى الصراع الذي جرى بين النبي مـوسى عليـه السـلام وبين الفـرعون ، أي الصراع بين ديـانـة التـوحيد التي أمـر بهـا مـوسى وبين عقـائد الـوثنيـة الفـرعونية وأسـاطيرهـا ، ونسـتطيـع من خـلالـهـا معـرفـة مـوقف القـرآن الكـريـم وبـالتـالي مـوقف الدين الاسلامي من تلك الأسـاطير .

يقول تعـالى في سـورة النـازعات: ﴿ **هل اتاك حديث موسى**[١٢] **إذ نادى ربه بالواد المقدس طوى**[١٦] **اذهب إلى فرعون إنه طغى**[١٧] **فقل هل لك إلى**

أن تـزكى[١٨]فـأهديك إلى ربك فتخشى[١٩] فـأراه الآيـة الكبرى[٢٠] فكذب وعصى[٢١] ثم أدبر يسعى[٢٢] فحشر فنادى[٢٣] فقال أنا ربكم الأعلى[٢٤] ﴾

ويقول تعالى في سورى طه: ﴿ **قال فمن ربكما يا موسى[٤٩] قال ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى[٥٠] قال فما بال القرون الأولى[٥١] . قال علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى[٥٢] ﴾**

ويقول تعالى في سورة القصص الآية ٣٨ . ﴿ **وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري، فأوقد لي ياهامان على الطين فاجعل لي صرحاً لعلي اطلع إلى إله موسى وإني لأظنه من الكاذبين**﴾

لقد عد المصريون ملوكهم آلهة لهم ، باعتبارهم تجسيداً للآلهة ، ولهم صفة الهية استوجبت عبادة الملك من قبل رعيته . وكانوا يقومون بتقبيل الأرض بين يديه أو تقبيل قدميه من قبل المقربين منه . وقد ادعى الفراعنة أنهم خلفاء الآلهة على الأرض . وزعموا أنهم تقمصوا ارواحهم وظلت فكرة تأليه الملوك حتى وقت متأخر بعد قيام الامبراطورية الجديدة في مصر ، ولما كان الملك إلهاً في حياته فهو ملك وإله بعد مماته ، حيث ينتقل إلى السماء ويخلفه من بعده إله ملك من أبنائه على الأرض .

والأغرب من هذا أن المصريين القدماء قدسوا الحيوانات كالتمساح والتيس والكبش والصقر والثعبان والقطة وابن آوى والعجل .

ولعل أساطير مصر الفرعونية من أكثر الأساطير احتفاء بالآلهة وذلك لقدمها وامتداداتها وقد سجلت المكتشفات الأثرية الفرعونية عدداً كبيراً من الآلهة . كرع . وأوزريس . وايزس وحورس . سب . نون تمو . شو . تفنوت . ست . نفتيس . تحوت . نو . . بتاح . فنمو . خبيرا آمون . أنوبيس . ماعت . هو ميسه أورث . . متحور . سيخت وباست . ناأورث . حابي) ولكل إله اختصاص ومهمة ولكل آلهة قصة تدخل عالم الأساطير البعيدة في الخيال والوهم والقريبة جداً من مفاهيم السحر والقوى الغيبية المتصوَّرة .

أما العقيدة اليهودية فقد حفلت بأساطير الخلق والتكوين واستفادت مما قدمته الشعوب الأخرى من تراث أسطوري وثني واسع . . فالإله حسب تصور التوراة لم يخلق السماء والأرض ، إلا بعد صراعه مع التنين ذي الرؤوس السبعة . وابناء الله يتزاوجون مع بنات الناس ولم يكن الزواج شرعياً بل عن طريق الزنى والاباحية .

والرب يتمشى في الجنة ولا يعرف أين يختبيء آدم وحواء حين أكلا من ثمر الجنة . . وقد تداخلت عقائد اليهود بعبادة العجل أسوة بالمصريين الذين كان لهم الدور الأهم في بناء العقائد الوثنية التوراتية .

ودخلت عقائد اليهود بعض أساطير السحر والجن وظهر ذلك واضحاً في عدة أسفار من التوراة كسفر صموئيل وبعض القصص عن النبي داود والنبي سليمان عليهما السلام .

ولما سُبي اليهود إلى بابل وعاشوا مع شعوب بلاد ما بين النهرين تأثروا سريعاً بمعطيات العقائد الأسطورية للمنطقة . ونلاحظ أن الأنبياء مثل أرميا ودانيال قد شكوا جداً من عقائد اليهود التي تمثلت عقائد بابل ومن ثم الفرس الذين عبدوا ملوكهم إلى جانب عبادتهم للنار . وعندما احتل الرومان بلاد الشرق ومن ضمنها فلسطين استجاب اليهود الذين ظلوا في المنطقة لعقائد الرومان وأدخلوا على عقائدهم كثيراً من الأساطير والوثنيات الرومانية ومنها ما يتعلق بالإله الروماني جوبتير وغيره من آلهتهم .

حتى أنهم حاربوا السيد المسيح الذي أخذ ينقّي العقائد من الوثنية . فما كان من اليهود إلا أن كادوا له وتآمروا مع الرومان الوثنيين على ايذائه .

وعندما نزل القرآن الكريم على رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت العقائد الوثنية الجاهلية قد وصلت ذروتها في صنع الأساطير . ولهذا سنتوقف هنا لندرس تلك العقائد الاسطورية وكيف كان موقف الاسلام منها .

من المعروف أن الجزيرة العربية ضمت بعض القرى الكبيرة كمكة والمدينة ، وبعض المدن في اليمن وساحل الجزيرة على الخليج العربي . وضمت أيضاً بعض القبائل التي استقر بعضها حول الواحات . ومنها من ظل يتنقل غازياً ومحارباً من مكان لآخر . وباعتبار أن لكل شعب من شعوب الأرض معتقداته: فإن العرب في منتصف القرن السادس الميلادي أي عند بعثة النبي صلى الله عليه وسلم كانت لديهم معتقدات أسطورية دينية ، منها ما اعتمد على التأثر الخارجي . ومنها ماكان داخلياً ، بمعنى أن بعض المعتقدات أخذوها عن غيرهم من الشعوب المجاورة كالفرس والرومان واليهود . وبعض المعتقدات التي طورتها خيالاتهم ، بسبب التفاعل بين عقليتهم والبيئة التي عاشوا ضمنها . أما بعض العرب فقد دانوا المذهب الحنفي الداعي إلى ديانة التوحيد التي نادى بها ابراهيم عليه السلام .

وبسبب المنازعات بين القبائل العربية التي تكاثرت ، وأنجبت ، خرج بعضهم من مكة وهي المكان المقدس الأول لديهم ، وتقرباً من الكعبة ، فقد حملوا أثناء نزوحهم حجارة منها ، ومع مرور الزمن فقد قدسوا هذه الحجارة ، ثم ما لبثوا أن جعلوها أصناماً منها ماله هيئة وشكل ومنها بلا شكل أو هيئة .

ومع التطور الاعتقادي لأهل مكة فقد جعلوا لها كهنةً وسدنة ممن عرفوا خرافات التنجيم والأساطير ، وبعض الأقوال المسجوعة ، والقصص والحكايات المرتبطة بالأوّلين . وراح هؤلاء الكهنة يصنعون حول هذه الآلهة أو الأصنام حكايات أسطورية صدقها بعض الناس ورفضهم آخرون لقد قال بعض العلماء والباحثين العرب استناداً على أقوال الاخباريين العرب القدامى أن عمر بن لحي هو أول من أدخل الأصنام وعبادتها إلى مكة . ويقال إن سبب جلبه للأصنام أنه مرض مرضاً شديداً فقيل له: إن بالبلقاء في الشام حمّة ان أتيتها برأت فأتاها فاستحم بها فبريء . ووجد أهلها يعبدون الأصنام فقال ما هذه: قالوا نستسقي بها المطر ونستنصر بها على العدو. فسألهم أن يعطوه منها ففعلوا . فقدم بها مكة ونصبها حول الكعبة . وقد أدخلوا الأسطورة فيما روي عن هذا الرجل حتى أن بعضهم قال عنه إنه رجل أسطوري وليس له وجود في الواقع وقالوا إنه يتصل بقوى خفية تتمثل بجنية تأتيه بأنباء الغيب وترشده إلى مكان الأصنام القديمة ليأخذها وينشر الوثنية بين العرب . وقالت بعض المصادر عن أخبار العرب إن الأصنام هي أصنام قوم نوح التي حملها الطوفان وأودعها شاطىء الجزيرة العربية على البحر الأحمر. راح العرب ينسجون حول هذه الاصنام أساطيرهم حتى باتت هي المقياس في عقائدهم(*) بعدما ابتعدوا عن ديانة التوحيد التي بدأها ابراهيم وأتمها اسماعيل في عصرة . وانتشرت بين كثير من الناس وظلت بعض آثارها لدى ورقة بن نوفل والحنيفية .

ومن أشهر أصنام مكة هبل . وهو مجلوب من خارج الجزيرة العربية . وكان يمثّل انساناً مكسور اليد اليمنى ، وقد صنعت له قريش يداً من ذهب . ووضع أمامه سبعة أقداح وصنعوا حوله أساطير كثيرة . . منها أنهم إذا اختصموا في أمر أو أرادوا سفراً أو أرادوا أن يختتنوا غلاماً أو ينكحوا منكحاً أو يدفنوا ميتاً أتوه باستقسموا بالقداح عنده فما خرج عملوا به وانتهوا إليه .

وكانوا يظنون أن له علاقة بالغيب ، وكانوا يذهبون إليه بمائه جزور وأعطوها سادنه أو كاهنه . وضربوا بالقداح على ما يريدون(١٤)

وعنده ضرب عبد المطلب القداح على ابنه عبد الله والد رسول الله صلى الله عليه وسلم حينما نذر أن يذبحه . وهناك اسطورة أخرى تدور حول هبل حيث زعموا أنه على علاقة بالحروب وقد ورد أن ابا سفيان عندما رجع من معركة أحد قال (اعلُ هبل) أي علا دينك(١٥) وقد دعوه إلهاً حيناً ورباً حيناً آخر .

ويقال عن اساف ونائلة أنهما امرأة ورجل أتيا إلى الحرم للطواف بالكعبة فارتكبا فاحشة في البيت الحرام فمُسخا حجرين ثم وضعا قرب الكعبة ليتعظ الناس بهما ولم يلبثا أن عُبدا مع بقية الأصنام(١٦)

أما سبب انتشار اسطورة عبادتهما فتعود كما يعتقد إلى أن قريشاً اشاعتها بين العرب إرهاباً وتخويفاً للحجاج ليعظموا الكعبة ، ويتهيبوا أن يأتوا في الحرم أفعالاً شائنة وخاصة أن بعض العرب نساءً ورجالاً كانوا يطوفون بالبيت عراةً أو شبه عراه .

وقد عبد الجاهليون الإلهة ـ اللات ـ في الطائف وهي إلى الجنوب الشرقي من مكة . وقد عظمت قبيلة ثقيف هذا الصنم ، واللات ليست صنماً منحوتاً ، وإنما هي صخرة بيضاء مربعة بنوا عليها بيتاً ، وكانوا يسترونه ويخصّصون له حجبة وكسوة ويضاهون بها الكعبة وبعض المصادر تقول إنها ـ حسب الأسطورة الجاهلية ـ الأخت الأولى من بنات الله الثلاث . وقد ورد ذكرها في القرآن الكريم (اللات والعزى ومناه الثالثة الأخرى) ويقال ان هذه الآلهة مستوردة من خارج الجزيرة العربية . وهي إلهة العوالم السفلى والموت والظلام . ويبدو أن منشأها الأول يدل على أنها آلهة الشمس استناداً على قول عمر بن لحي (ربكم يتصيف باللات) وهذا يدل حسب اعتقادهم على أنها آلهة فصل الصيف والشمس المحرقة التي تجلب العطش . ولهذا خافوها وعظموا شأنها .

وبسبب تقديسها ومكانتها لدى ثقيف وبقية عبدتها من الجاهليين كانوا ينحرون لها ويقدسونها ويهدون لها الحلي والذهب والثياب النفيسة فيعلقها السدنة عليها اظهاراً لعظمتها ومنزلتها . ويقال إن نساء ثقيف كنّ يندبن عندما حطمها المسلمون وكسروا الأصنام بعد فتح مكة .

أما العزّى فهي شهيرة مثل هبل واللات ، وخاصة لدى قريش وكنانة . ويقع موضعها إلى الشمال من مكة . وتمثل العزّى ثلاث شجرات صغيرات الورق . وذهب آخرون إلى أنها كانت شيطانة تأتي تلك الشجرات ، وأرجح الأقوال حولها أنها كانت صنماً منحوتاً على شكل امرأة . وقد خيّل للعرب أنها شيطانة قوية تحمي نفسها وليس غريباً القول بأن سادنها أهاب بها لتقتل خالد بن الوليد حين همّ بتدميرها .

وقد تقرب عبادها لها بذبح القرابين والذبائح . وقد كان لهًا منحر ينحرون فيه هداياها من الأنعام يقال له (الغبغب ، وتقول بعض المصادر إن العزّى هي رمز لكوكب الزهرة أو كما يسمونها نجمة الصباح . ويقال أيضاً إن المنذر ملك الحيرة قدم لها قرابين بشرية من الأسرى وراح بعضهم يقول إنها آلهة الجنس والاخصاب ، ويقال إن المرأة من العرب إذا عسر عليها خاطب النكاح نثرت جانباً من شعرها وكحلت إحدى عينيها ، وحجلت على إحدى رجليها ، ويكون ذلك ليلاً وتقول (يا نكاح أبغي النكاح قبل الصباح) أي أنها تريد الزواج أو المخالطة الجنسية قبل ظهور نجم الصباح أو كوكب الزهرة) .

ولعل دليل أسطورتها وكذب سادنها أن خالد بن الوليد عندما قطع الشجرة الثالثة من شجراتها خرجت امرأة حبشية مولولة نافشة شعرها أرادت أن تهاجم خالداً هي وكاهنها لكنه أعجلها بضربة من سيفه فقتلها وقتل كاهنها الذي حرّضها باسم العزّى بالهجوم على خالد .

أما مناة فهي من أقدم أصنام قريش وكانت منصوبة على ساحل البحر إلى الغرب من الحجاز ، وكان الأوس والخزرج وقريش يعبدونها ، وهي تمثل صخرة ، أما أسطورتها فتقول : إن حج العرب لا يصحُّ دون زيارتها مسبقاً . ولها أهمية تعادل مالّلات والعزّى وهبل . وقد احترمها العرب وقدسوها وقد جاء ذكرها في القرآن الكريم في سورة النجم الآيتين ١٩ ــ ٢٠ ﴿ **افرأ يتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى** ﴾ .

ومن بين الأصنام التي صنع العرب حولها الأساطير صنم يقال له نُهْم ، وصنم يقال له سواع وآخر اسمه الفِلَس و(سعير) و(الاقيصر) و(ود) و(اليعبوب) ، و(ذو الكفين) و(ذو الشرى) و(عائم) (سعد) (ذو الحلصة) و(يفوث) و(يعوق) وعشرات الأصنام الأخرى التي تمثل آلهة صغيرة للقبائل الكثيرة المتناثرة في الجزيرة العربية .

وقد أنّث العرب بعض الآلهة وذكّروا بعضها الآخر جرياً على عادة أساطير الشعوب المجاورة وقد جعلوا لبعضها أولاداً وبناتٍ حتى قال في ذلك الشاعر زيد بن عمرو بن نوفل :

فلا العزى أدينُ ولا ابنتيها ولا صنمي بني غنم أزورُ

وأدخل العرب في أساطيرهم عبادة الأشجار . فقد ذكُر أنهم تقربوا لشجرة تدعى ذات أنواط ، وهي شجرة عظيمة خضراء ، كانوا يذبحون عندها ويعكفون ويعلّقون عليها أسلحتهم ويتعبدون قربها يوماً كاملاً . فهي في تصورهم وثن وآلهة ، كبقية الآلهة :

وقد ورد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه رأوا شجرة عظيمة في حنين ، فقال بعضهم يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط فقال صلى الله عليه وسلم (**الله أكبر قلتم والذي نفس محمد بيده كما قال قوم موسى له : إجعل لنا آلهة كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون**)[١٧] وهذا حديث ضعيف .

ويظهر أن عبادة الأشجار كانت معروفة لدى الجاهليين منذ قديم الزمان , فقد جاء في خبرٍ عن دخول المسيحية لنجران أن أهلها كانوا على دين العرب يعبدون نخلة طويلة بين اظهرهم ، ولها عيد في كل سنة . إذا كان ذلك العيد علّقوا عليها كل ثوب حسن وجدوه وحلي النساء ، ثم خرجوا إليها فعكفوا عليها يوماً[١٨] .

وبشكل عام فالعربي مثله مثل غيره من أفراد الأمم القديمة الأخرى يعتقد في وجود قوى غير منظورة في الكون الواسع يظن أنها تساعده في تأمين رزقه من ناحية وفي الانتصار على عدوه من جهة أخرى . وقد عدّ هذه القوى آلهةً وأرباباً لذلك كان أكثر ما يلجأ إلى الأصنام مناجياً تلك الآلهة لتحقيق هاتين الغايتين .

كيف تعرض القرآن الكريم بالحديث عن آلهة الجاهليين ؟

نـزل القـرآن الكـريـم على رسـول الله صلى الله عليـه وسلـم وقد بلـغ الجـاهليـون كل مبلـغ في عبـادتهم للأصنـام . ولمـا كان النبي الكريم ابن قوم وثنيين فقـد صـارعهـم بـالحجـة والعقل وذلك من خـلال استنـاده إلى المنطق القرآني الذي يحاور العقل والوعي قبل أن يحاور العاطفة والوجدان .

لقد ربطت الجاهلية عبادة قبائلها للأصنام بأساطير وخرافات ألّفها العربي على مدى عشـرات السنين . ونتيجـة لطبيعـة البيئـة الصحـراويـة والأخـرى الاجتمـاعيـة التي سـادت حيـاة العـرب فقد صنـع خيـالهـم تصـورات تتعلق بالحروب ، والاستسقاء وطلب الماء وذلك بسبب الصراع اليومي بين بعضهم بعضاً وبسبب الجفاف وقلة الماء .

فـالآلهـة التي عبدوهـا ، حسب اعتقـادهـم تحل في الأصنـام ، ولهـا قدرة على العطاء والرزق ولها قدرة على التدخل في الحروب ومسـاعدة عبّادهـا للنصر على الأعداء ، وهذا بالطبع يذكرنا بالأساطير اليونـانية القائمة أساساً على صراع يدور بين طرفين وفي كل طرف آلهة وبشر ، وقد ظهر ذلك واضحاً في الاليـاذة حيث الحرب الدائرة مع مدينة طروادة وحيث الصراع بين البشر وتدخل الآلهة في هذه الحروب .

١ ــ ركزت العقيدة الاسلامية على التوحيد ، والقرآن الكريم جعل مسألة العقيدة المفصل في مقيـاس الكفر والايمـان . وقد جاءت آيات القرآن الكريم مركزة على التوحيد أيّما تركيز .

وباعتبار أن القرآن يدعو إلى حوار العقل والمنطق فقد جادل المشركين

وبيّن جاهلية عقائدهم وعدم توافقها مع المنطق العقلي .

فتعدد الآلهة لا يتوافق مع المنطق ، لأن الله هو الخالق المبدع ولو كان هناك أكثر من إله لاختلفا في مسألة خلق الكون أولاً وخلق الانسان ثانياً وجميع الأمور ثالثاً ورابعاً إلخ . وقد جاء التركيز على هذه المسألة من خلال آيات كثيرة في القرآن الكريم .

فسورة الاخلاص تجمل كل شيء في التوحيد :

﴿ قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوًا أحد ﴾ .

ثم تفصّل الآيات الأخريات وحدانيةالله واستحالة وجود آلهة أخرى تشارك في الخلق والتدبير .

يقول تعالى في سورة المؤمنون الآية ٩١ **﴿ وما اتخذ الله من ولد ، وما كان معه من إله إذاً لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحن الله عما يصنعون ﴾** .

والآية الكريمة تشير إشارة واضحة لما كانت عليه عقائد الشعوب الوثنية . ومن المعروف أن جميع أساطير تلك الشعوب تتحدث عن مجمعٍ للآلهة فيه الكبير والصغير وفيه الذي يعلو على الآخر ، وفيه أيضاً من يتناقض عمله مع الآخر فتكون النتيجة الخلاف والتدمير ، ولننظر إلى أسطورة التدمير في كل من الأسطورة البابلية والأسطورة المصرية والأسطورة الكنعانية ، ولننظر إلى الصراع بين الآلهة كما توهمه هوميروس في الأساطير اليونانية .

ولأن الجاهليين اعتادوا على عبادة الآلهة المتعددة فقد وجدوا في الدعوة إلى التوحيد وعبادة إله واحد لا يُمثّل بصنم ولا يشخص شيئاً عجباً لم يألفوه . وهذا طبيعي بالنسبة لأناس اعتادوا أمراً على مدى أجيال كثيرة واعتبروا تعدد الآلهة أمراً بديهياً فلما جاءت الدعوة لتقول لهم إن آلهتكم من صنع أيديكم وأوهامكم وأن الله واحد غير منظور ولا مجسّد وجدوا في ذلك أمراً مفاجئاً فدهشواوقالوا إن ذلك أمر عجب .

يقول تعالى في سورة ص ، الآيتين ٤ ـ ٥ **﴿ وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب[٤] أجَعَل الآلهةإلهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب ﴾** .

ورداً على من قال لله طبيعة إلهية وأخرى بشرية وردت عدة آيات تفند

مزاعمهم وتكشف حقيقة الألوهية وجوهرها الذي يخالف الطبيعة البشرية .

يقول تعالى في سورة النساء الآية ١٧١ ﴿ **يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق ، إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته القاها إلى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيراً لكم إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد له ما في السموات وما في الأرض وكفى بالله وكيلاً** ﴾ .

فالقول بثلاثة طبائع لله أو ثلاثة وجوه ما هو إلاّ حسّ أسطوري أولاً ثم هو تأليف أسطوري ثانياً ولو نظرنا إلى ما آلت إليه التفسيرات المتعاقبة حول ذلك لوجدنا ذلك التأليف الأسطوري وتلك المغالاة في جعل الله يمتزج بإنسان هو السيد المسيح عليه السلام .

وقد رد القرآن الكريم على من زعم أن مع الله إلهاً آخر ووضح القرآن الكريم استحالة ذلك لأسباب كثيرة منها ما ورد في الآية ٤٢ في سورة الإسراء بقوله: ﴿ **قل لو كان معه آلهة كما يقولون إذاً لابتغوا إلى ذي العرش سبيلا** ﴾ .

ويحاور القرآن الكريم جميع المشركين بلا استثناء بوحدانية الله وذلك من خلال الحجة الدامغة والبراهين المنطقية الواضحة :

يقول تعالى في سورة الأنبياء : ﴿ **أم اتخذوا آلهة من الأرض هم يُنشِرُون-٢١- لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون-٢٢- لا يُسأل عما يفعل وهم يسألون-٢٣- أم اتخذوا من دونه آلهة قل هاتوا برهانكم هذا ذكر من معي وذكر من قبلي بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون٢٤** ﴾ .

وتحدث القرآن عن عجز تلك الآلهة التي زعموا أنها تنصرهم وتقف إلى جانبهم في الحروب فهي أصنام وحجارة غير عاقلة وغير واعية ولا تملك ضراً ولا نفعاً ، وحتى يقرب القرآن الصورة لذهن الناس جميعاً أورد الآيات الكريمات التي تتحدث عن مصير تلك الآلهة ومصير من اتخذها آلهة له .

وبكل سخرية من هؤلاء يقول القرآن الكريم في سورة الأنبياء الآية ٩٨ _ ٩٩ :

﴿ **إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون-٩٨- لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها وكلّ فيها خالدون** ﴾ .

فإذا كانت هذه الآلهة لا تستطيع دفع الخطر عن نفسها فكيف بها تنصر من يتبّعها ؟ يقول تعالى في سورة الأعراف في الآية ١٩٧ ﴿ **والذين تدعون من دونه لا يستطيعون نصركم** ﴾ .

ويقول تعالى في سورة الأنبياء الآية ٤٣ ﴿ **أم لهم آلهة تمنعهم من دوننا لا يستطيعون نصر أنفسهم** ﴾ . ويقول تعالى في سورة هود الآية ١٠١ : ﴿ **وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم فما أغنت عنهم آلهتهم التي يدعون من دون الله من شيء لما جاء أمر ربك وما زادوهم غير تتبيب** ﴾. فهذه الآية تحدثت عن مصير الأقوام السابقة كثمود وعاد وقوم شعيب وفرعون تلك الأقوام التي ادّعت أن آلهتهم سوف تنصرهم إذا ألّمت بهم الملمات وحاق بهم العذاب حتى أن الكافرين حين استنصروا بآلهتهم بالدعاء وقفوا صامتين أمامها لأنها لا تستجيب ولا تجيب . يقول تعالى في سورة الرعد الآية ١٤ : ﴿ **والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء** ﴾ .

ومن لم يلجأ إلى عبادة الأصنام لجأ إلى جعل الله كالبشر له بنون وبنات وشركاء فرد القرآن عليهم رداً بليغاً في كثير من آياته الكريمة .

يقول تعالى في سورة الأنعام الآية ١٠٠ ـ ١٠١ ﴿ **وجعلوا لله شركاءَ الجنَّ وخلقهم وخرقوا له بنين وبنات بغير علم سبحانه وتعالى عما يصفون ـ١٠٠ بديع السموات والأرض أنّى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم١٠١** ﴾ .

وقد زعم بعضهم أن الملائكة هي بنات الله وقد قلنا سابقاً إن ذلك من تأثيرات الأساطير القديمة التي صنعها الكنعانيون والبابليون حيث زعمت أساطيرهم أن لبعلٍ بنات ثلاثاً هي آلهة الضوء ـ برداي وإلهة الطل والندى تلاي وآلهة ثالثة وقد وردت عدة آيات في القرآن الكريم ترد على مزاعمهم تلك وقد جاءت لتحاور عقولهم من خلال السؤال والجواب حتى يتمكنوا من معرفة الحقيقة دون لبس أو عماء .

يقول تعالى في سورة الزخرف الآيتان ١٥ + ١٦ : ﴿ **وجعلوا له من عباده جزءاً إن الإنسان لكفور مبين١٥ أم اتخذ مما يخلق بنات وأصفاكم بالبنين ؟** ﴾ .

وإذا كنتم تعترفون بهذا الإله الواحد الأحد فكيف تكرهون أن تنجبوا البنات وتقبلون أن ينجب هوالبنات وهو خالقكم وربكم ؟

ويقول في سورة الصافات الآية ١٤٩ ـ ١٥٠ ﴿ **فاستفتهم ألربك البنات ولهم البنون ، أم خلقنا الملائكة إناثاً وهم شاهدون** ﴾ .

ويدحض القرآن مزاعمهم فيقفون أمام الآيات صامتين مدهوشين ـ هل كنتم شاهدين عندما خلق الله الملائكة حتى تقولوا إن الملائكة بنات ؟ .

وفي سورة النحل يقول تعالى الآية ٥٧ : ﴿ **ويجعلون لله البنات سبحنه ولهم ما يشتهون** ﴾ .

وقد رد القرآن على اليهود والنصارى حين زعموا أن عزير هو ابن الله أو أن المسيح هو ابن الله ، قال تعالى في سورة التوبة الآية ٣٠ ـ ٣١ : ﴿ **وقالت اليهود عزير ابنُ الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلكم قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل ، قاتلهم الله أنما يؤفكون ، اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلاّ ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون** ﴾ .

فهاتان الآيتان تبينان لنا كيف أن المشركين حاولوا مضاهاة الشعوب السابقة ، والمشركون هم من اليهود والنصارى الذين حاولوا أن يقلدوا الشعوب السابقة بقولهم إن بعض الناس هم أبناء الله ، ولعلنا نذكر كيف كان الفراعنة يصوّرون أنفسهم على أنهم أبناء الله يرثونه في الأرض .

وعندما تقول الآية الكريمة اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً كان المقصود بذلك اليهود الذين قالوا إن عزيراً هو ابن الله أما قوله والمسيح ابن مريم فهو واضح للقارىء حيث أن بعض النصارى قالوا بأن المسيح ابن الله ، فجاءت الآيتان لتفند مزاعم الطرفين وتبينا أنّ ما أُمِرَ به اليهود والمسيحون ليس إلا عبادة الله الواحد الذي هو منزه عما يقولون فهو الله لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد .

وما كانت دعوتهم بأن لله ولداً سوى تقليد لما عرفته الشعوب قبلهم من كفر وجهل وزيف . وتلك الشعوب استند ملوكها وأحبارها وكهنتها في دعوتهم على أساطير تصوروها وصنعوها ومثلوا لها بالأصنام والأشكال المجسدة أو المجسمة .

وما تفنيد مزاعم هؤلاء من قبل القرآن الكريم إلا تفنيد لكل ما عرفته الأمم من وثنية وأساطير ، كرّست حكم الرهبان والفراعنة والملوك ، وباسم هذا الوهم حكموا شعوبهم واضطهدوها ، وقهروا الشعوب المجاورة

وأجبروها على اتباع سُنَنِهم بقوة السيف ورهبة الموت والقتل .

الأسطورة والمقياس الحضاري :

دأب الغرب بشكل عام على الاعتزاز بالحضارة اليونانية باعتبارها أقدم حضارة أوروبية خلفت وراءها آثاراً مادية وأدبية ، اعتبرت في كافة المقاييس الغربية خالدة يعتز بها العالم الأوروبي برمته ، وقد استغلها بعض المتعصبين من الباحثين والعلماء الغربيين ليتّهم العالم العربي والاسلامي بفقر الابداع وفقدان الكثير من معالم المسرح والملحمة الشعرية والأسطورة . وقد كرس هؤلاء مقولات مغالطة تقول إن مقياس رفعة أي أمة هو بما خلفته من أساطير وتراث علمي وأسطوري .

وبينما هم كذلك راح فريق آخر من العلماء والباحثين يبحث عن أساطير منطقتنا العربية وعن مخلفات الماضي من آثار مادية وتراثية . وشغلت أساطير المنطقة عقول الشعوب وأبهرت بما قُدم لها من تفسيرات للغة القدماء ، وجبروتهم وعظمتهم وعظمة أبنيتهم وقصائدهم الملحمية ومعتقداتهم .

وأغرقوا المنطقة بتفاسير كل ما وقعت عليه أيديهم وقصدوا إلى تنمية الروح الاقليمية بإبراز تاريخ حضاري وأسطوري تمتعت به كل منطقة على حدة .

ولعل ما أفاد ذلك إحاطة الآثار المادية بهالة من التقديس والعظمة فالأهرامات في مصر إلى جانب معبد الكرنك وأبي الهول وغيرها من المعالم في مصر شدت الأعين للنظر جيداً فيها وشدت العقول لتخيّل عظمة الفراعنة وما كانت عليه دياناتهم ومعتقداتهم وأساطيرهم .

وفي لبنان عُظمت مخلفات الفينيقيين حتى باتت بعلبك أو جبيل أو غيرهما أماكن حج لكثير من أبناء لبنان ، ينبشون عن أسطورة الفينيق ويغرقون في خيالات تعظّم ما كان عليه الفينيقيون حتى وصلوا إلى حالة من التقديس .

وقس على ذلك في كافة بلدان المنطقة العربية خاصة التي تقع شرقي حوض المتوسط . ولم تمض بضع عشرات من السنين حتى حُوّل الاعتزاز بالحضارة إلى عداوات إقليمية أدت في بعض الأحيان إلى التصادم الفكري

وحتى الميداني بين الأقطار العربية وأبناء الشعب الواحد ومن خلال المنهج الاستشراقي المنظم والمخطط خلق العلماء والباحثون الغربيون حالات شتى من التصادم النفسي بين أبناء الأمة الواحدة وغذوا الاقليمية تغذية خبيثة من خلال التركيز على حضارة كل منطقة على حدة وخلقوا روح التفوّق الذاتي والتنافس غير الشريف بينها ، وصارت هي الهمّ الأكبر لدى الناس باعتبارها الماضي العريق الذي يظهر عظمة المنطقة دون الأخرى وتقدمها على غيرها حسب ما أُوحي لهم وحسب ما يتصورون .

لقد انصب الاهتمام على نتائج ما وصلت إليه تلك الحضارات ولم تنصب على بحث القيم الاجتماعية والعلاقات البشرية بين حاكم ومحكوم وبين باطل وحق .

ويجدر بنا في هذا الإطار أن نذكر ونوضح ما آل إليه تمثلُ الحضارات واستحضارها وما جرّ على القيم السامية العليا من ويلات وتشويه .

١) إن بناء المعالم الحضارية في جميع حضارات الشرق القديم قامت على تسخير الناس واستعبادهم لبناء تلك المعالم ، فالأهرامات في مصر والمعابد المنتشرة في وادي النيل لم تكن لتعمر لو لا استخدام عشرات الآلاف من الرقيق المستعبدين الذين أُبيد معظمهم وهم يشيّدون ويعمرون وكل ذلك ليمجّد الفراعنة ويهيئوا مقابرهم على أحسن صورة واقوى بناء . ولم يقتصر استعبادهم على شعوبهم بل أخذوا يجلبون الأسرى من الشعوب المجاورة المستضعفة ويجبرونهم على العمل ليلاً نهاراً والسوط فوق رقابهم وجلودهم التي إن غفل عنها السوط لا تغفل عنها حرارة الشمس القاتلة أو لفح البرد المميت .

وكذا الأمر في حضارة آشور والبابليين . فمعالم الحدائق المعلقة والزقورات وقصور الملوك لم تكن لتشاد إلا بعد فناء مئات الألوف من أبناء الشعب وأبناء الشعوب التي استُعبدت آنذاك وكل ذلك ليعتز الملوك ، وليدّعوا أنهم أصحاب المجد الإلهي العظيم .

فما هذه الحضارات التي قامت على جثث البشر ودمائهم وقوتهم وقهرهم ؟

٢) وبعد آلاف السنين يأتي من يعتز بتلك الحضارات ويفخر بها ويطرح أفكاره الاقليمية من خلالها . فراحت الدعوة الفرعونية تنادي مصر للمصريين ،

ولا علاقة بين الشعب المصري والعروبة إلا علاقة الغازين بأرض غريبة ، وبلغ الأمر بهم حداً ليتمادوا على العقيدة الاسلامية ويعتبروها كارثة على أرض مصر مجبرة أهلها على اعتناق الاسلام . والأدهى من ذلك كله أن خبثاء الأوروبيين غذوا هذا الاتجاه الاقليمي التعصبي . وراح دعاته من كبار المفكرين العرب المحسوبين على المسلمين والاسلام ينشرون أفكار الدعوة الفرعونية المصرية المنفصلة عن عالمها العربي والاسلامي .

وفي لبنان غذى الاتجاه الصليبي الغربي الدعوة للفينيقية الخاصة جداً والمنفصلة عن أي علاقة بالعروبة والاسلام . وراحت شعارات الفخار الفينيقية تطغى على العقائد وعلى القيم المشتركة لهذا الحوض العربي الاسلامي ، طرحوا شعار أول شعب يصنع الأبجدية للعالم ، وحولوا قصة طائر الفينيق إلى أسطورة يقدسها الطائفيون دعاة الفينيقية . وحين يتحدثون عن العروبة والاسلام ترى أفكارهم وعقائدهم تقطر سمّاً وعنصرية وتعصباً ، حتى راح بعضهم ينسج عقائد جديدة يربط فيها بين دعوة المسيح وتراث الفينيقيين واليونانيين والسريان وما شابه ذلك من تراثٍ لشعوبٍ غريبة غزت المنطقة وطرحت أفكارها وبثتها بين شعوب المنطقة .

لننظر سوياً إلى هذا الربط بين الأسطورة الكنعانية والعقيدة المسيحية والدعوة الاقليمية في لبنان .

ففي ملحق جريدة النهار الذي صدر بتاريخ ٢١/١٠/٩٢ أُجري لقاء مع الأب يوسف يمّين وهو يحمل دكتوراة في الذرة وصاحب رأي في الدراسات اللاهوتية والسياسية .

في هذا اللقاء تحدث الأب يوسف عن نظرته للبنان الفينيقي فقال في معرض حديثه :

« على أثر الطوفان الكبير طوفان نوح امّحت الكثير من المعالم . قبل سنة ١٩٢٩ أي قبل اكتشافات أوغاريت لم يكن هناك اسم (إيل) كان ثمة تساؤل في التوراة وفي الكتب القديمة عن مقام إيل وجدت أنه جبل المكمل قلت ذلك لشارل مالك وفؤاد أفرام البستاني . فؤاد قال إن الذي أحكيه شيء خطير .

ثم قرأت الكثير من الكتب السرية والمحرّفة ، ليس عندي تحفظات للوصول إلى الحقيقة . حظيت بكتاب (احنوخ) هذا الكتاب استند إليه جميع آباء الكنيسة كان قانوناً في التوراة . من هو احنوخ ، حسب التوراة هو سابع الآباء

بعد آدم . التوراة تذكر احنوخ في سطرين فقط . لقد كان هذا الانسان في جبالنا هنا. كانت اهدن من (قرنة السودا) شرقاً إلى قرن إيطو غرباً ومن قنّوبين جنوباً إلى أفقا شمالاً . هذه هي إهدن القديمة جميع سكان لبنان كانوا يحجون لبعل باب الهوا . كانت إهدن قلب لبنان .

أخذ احنوخ الحضارة بسفن فضائية ونشرها على وجه الأرض . أسس حضارة بلاد ما بين النهرين والحضارة الفرعونية (هناك رسائل من الفراعنة إلى كهنة كنعان تثبت أن الأسرار في حوزتهم) عندي ٢٠ قرينة باللاتينية ومراجع ألمانية كثيرة أحدها يقول ان احنوخ ترك لبنان وذهب إلى مصر وبدأ بالأهرام ثم إلى اليمن ثم إلى الربع الخالي . حضرموت وهو عمرّ زحل في المنطقة التي سميت مكة فيما بعد .

بعد أن أدركت أن لبنان هو منطلق ديانة إيل والحضارات ، تساءلت عن علاقة المسيح بكل هذا ، إن المسيح هو عمانوئيل أي إلهنا معنا أي إيل المتجسد . إيل تجسد في لبنان مريم العذراء . عندما بشرها الملاك كانت في جبل الكرمل (هناك إثباتات لا تقبل الشك وجبل الكرمل في كل خرائط العالم كان دائماً في فينيقيا أي في لبنان . والمسيح أعلن ألوهيته في قانا في لبنان ، وعندي براهين تثبت أنه (المسيح) أتى إلى قبر كنعان وأربعة براهين تثبت أن قبر كنعان هو عند جبل إيطو » .

إن معظم المفكرين المسيحيين اللبنانيين انساقوا وراء ربط الأساطير الفينيقية بالديانة المسيحية وبالاقليمية المناهضة للعروبة والعقيدة الاسلامية . ولا أدل على ذلك من كتابات شارل مالك وغيره من الكتاب الطائفيين .

لقد أدى بروز التيار الاقليمي المعتمد على تقديس الأسطورة المحلية إلى التصادم بين المفاهيم وبين أبناء الشعب العربي ، بطوائفه ومذاهبه ، وهذا ما كان يصبو الأوروبيون ويخططون له منذ زمن بعيد .

وحين يتعرض القرآن الكريم بالحديث لما صنعته الشعوب القديمة من حضارات مادية يبين أنها ما أغنت عن أصحابها شيئاً لأنها كُرست للطغيان والكفر والظلم وقهر المستضعفين لم يقف الاسلام موقف المعادي من إبداعات الانسان بل وقف معادياً للغايات المنافية للمنطق والعقل ، المعادية للعدالة والمساواة . بل إن المفهوم الأساس في خلق هذا الانسان يستند إلى غاية

كبرى وهي تعمير الأرض . فالانسان مستخلف فيها مطلوب منه أن يعمرها ، لكن انحراف الانسان نفسه عن الغايات الكبرى أدى إلى طغيان مفاهيم معاكسة مضادة مناقضة ، كرست الحضارة بمعالمها الفرعونية والبابلية والكنعانية وغيرها من حضارات الشرق القديم لتسلّط الملوك والادعاء بالألوهية أو أنصاف الألوهية وكرست بالتالي لتأليف الأساطير الخيالية والوهمية وربطها بطبيعة الحكم الظالم والحكام . لقد جعل القرآن الكريم الانسانَ غايةً سامية بحد ذاته . فهو المقياس الحقيقي لرفعة الأمة أو تقدمها ، وليست تلك الأبنية المنحوتة بالصخر والمشيّدة على أقوى شكل وأرهب تصميم ، وليست غايتها سوى قهر الانسان واضطهاده وتدميره ، وإقناعه قسراً بأساطيرهم المستندة إلى الإيهام والتخمين والتضخيم .

ولذلك أيضاً تحدث القرآن الكريم عن الأقوام السابقة وعما صنعته من أبنيةٍ أذهلت العقول لكنها رغم ذلك لم تدم أولاً ولم تستطع أن تحمي أصحابها من التدمير الجماعي ثانياً ولو أنها فعلاً صنعت وأُبدعت لخير بني البشر والعدالةوالحق لكانت رمزاً من رموز العطاء الخيّر في مسيرة تعمير الكون ، وبدل أن يُضرب بها المثل للطغيان والدمير يضرب بها المثل للخير والإحتذاء .

لم تغنِ عن أصحابها لأنها كُرِّست للإشراك بالله خالق كل شيء ومانح الانسان قوته البدنية وعقله وإبداعه ولأنها خالفت المنطق والعقل وتوافقت مع الخرافة والأسطورة ، آمنت بآلهة متعددة ليس لها حول ولا قوة ، وصنعت لها أقاصيص من الكذب والخداع حتى توهم الشعوب بأن الملوك أبناء الآلهة وورثتهم في التسلط والحكم الظالم .

لقد كان مصيرها الدمار لأنها لم تجعل الانسان القيّم المستقيم غايتها ، لم تدم واصبحت عيناً بعد أثر ، بينما ظلت العقيدة الاسلامية يحفظها قرآنها العظيم تعلم الانسان كيف يبني لصالح التقدم والعدالة والرفاه . تطلب منه بل تطالبه بأن يعمر لسعادة أبناء البشرية جمعاء ، بعيداً عن الإشراك بالله ، وبعيداً عن تسخير الانسان لأخيه الانسان واستعباده لأجل مصلحته الأنانية الذاتية . وبعيداً عن الوهم والتوهم والتخيل ، وبعيداً عن الكذب والادعاء ، وقريباً من العقل والمنطق والحوار المقنع . يدرك أن ما يعمّره ليس إلا وسيلة للخير وليس للشر . وأن الغاية سعادة الانسان في الدنيا والوصول بأمان إلى العالم الآخر .

يقول تعالى في سورة الفجر ﴿ **ألم تر كيف فعل ربك بعاد(٦) إرم ذات**

العماد[٧] التي لم يخلق مثلها في البلاد[٨] وثمود الذين جابوا الصخر بالواد[٩] وفرعون ذي الأوتاد[١٠] الذين طغوا في البلاد[١١] فأكثروا فيها الفساد[١٢] فصب عليهم ربك سوط عذاب[١٣] إن ربك لبالمرصاد[١٤] ﴾ .

ويقول تعالى في سورة سبأ ﴿ **لقد كان لسبإٍ في مسكنهم آيةٌ جنتان عن يمين وشمالٍ كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور[١٥] فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدّلناهم بجنتيهم جنّتين ذواتي أكلٍ خمطٍ وأثلٍ وشيءٍ من سدر قليل[١٦] ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجزي إلا الكفور[١٧] وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها قرى ظاهرة وقدرنا فيها السير سيروا فيها ليالي وأياماً آمنين[١٨] فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا وظلموا أنفسهم فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور[١٩]** ﴾ .

ويقول تعالى في سورة الروم ﴿ **أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها وجاءتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون** ﴾ الآية ٩ .

إن التمسك بالحضارة ليس معناه التمسك بالأساطير ، فالحضارة نتاج تفاعل بين الانسان والطبيعة . ولم يكن الاسلام ليقف موقف المعادي مما ينتجه الانسان وما يبدعه من أبنية لكنه هاجم تلك الشعوب التي انحرفت عن الغاية الانسانية . قال تعالى : ﴿ **وجعلنا لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور** ﴾ .

لقد كُلف الانسان في كافة الشرائع بأن يعمر الأرض ولا يهدّمها وأن يسخّر الطبيعة لخدمة الخير وليس للاستعلاء والاعتداء ، ولم يجعل الاسلام ما خلّفه الانسان من آثار مادية مقياساً للتقدم إلا إذا ارتبط بالقيم السامية والمثل وإلاّ فإن كل ما هو ضارٌ لبني الشر مهما كانت عظمته وأسطورته فإنه يسقط أمام المقياس الانساني بمعناه الشمولي والخاص .

العودة إلى أساطير الماضي دلالة فقدان امتلاك الحاضر

كما تقدم فإن أساطير الشرق العربي الاسلامي أوجدها المستشرقون وعلماء الآثار الغربيون وقد جاءت غاياتهم سلبية في كثير من جوانبها لا سيما حين عظموا الديانات الوثنية من خلال أساطيرها وأحاطوها بهالة من العظمة والتقديس حتى بات المسلمون يبتعدون شيئاً فشيئاً عن عقيدتهم الاسلامية السامية .

وما إن بدأ منتصف هذا القرن حتى راح المثقفون العرب والمهتمون يعودون إلى مصادر الأسطورة الشرقية يبحثون ويتقصون وما هي إلا سنوات حتى وقع معظمهم في أحابيل التوراة باعتباره الكتاب التاريخي الوحيد الذي دوّن بعض مجريات التاريخ كما يراها اليهود من زاويتهم وليس من أي زاوية أخرى ، كانت غايات بعضهم لا تبتعد عن غايات المخرّبين من المستشرقين يدفعهم حسّهم الاقليمي والطائفي الحاقد كي يركزوا الأنظار بعيداً نحو ما يدعونه من عظمة شعوب المنطقة قاصدين إبعاد الضمير الاسلامي وعقيدته رافعين من شأن المحلية على حساب كلّ ما هو قومي وإسلامي.

وغايات بعضهم الآخر تلتزم الدفاع عن تراث الأمة القديمة لكنهم ومن حيث لا يدرون سقطوا في مقولات التوراة فتخبطوا ولم يصلوا إلى ما قصدوه من غايات . وكانت معظم مراجعهم إن لم نقل كلها من صنع المستشرقين التي لا تخفى غايتُهم الخبيثة على أحد .

ولعل أهم ما يلاحظ على موجة العودة إلى الأساطير وتفحصها ومن ثم التوصل إلى نتائج تراثية من خلالها أن المنطقة العربية الاسلامية وقعت تحت

نير الاستعمار الأوروبي بعد أن عانت من التخلف أربع مئة عام تحت ظل الحكم العثماني ورافق ذلك فترة زمنية طويلة من الشعور بالضعف والانحطاط والشعور بالإحباط القومي والوطني . ولما راح رموز النهضة في المنطقة يتطلعون إلى الاحياء لم يجدوا بدأ من العودة إلى الماضي ونبشه والاستغراق في معالم الحضارات القديمة للمنطقة . وظنوا أن العودة إلى الماضي تنقذهم من صورة انحطاط الأمة في الحاضر . ولو اقتصروا على إحياء التراث الاسلامي والاستفادة منه لكان الوضع مختلفاً تماماً لكنهم ركزوا اهتمامهم على الحضارات القديمة وأساطيرها وراحوا يصارعون الحضارة المعاصرة بما استحضروه من قصص الفراعنة والآشوريين والكنعانيين وغيرهم علّهم يعوّضون عن الشعور بالنقص أمام حضارة الغرب المادية وما توصلت إليه من مخترعات أبهرت العقول . وانحازت بها نحو المادية القاتلة ومن المعروف أن أي أمة تجد حاضرها قاصراً سلبياً تعتز بما كان لديها في الماضي وهي تدري أن الحديث عن صيغة كنّا وكنّا لن تغني شيئاً أمام جبروت العصر .

إن مصطلح التراث يصبح في هذا العصر مطاطاً أو غامضاً فتحت شعار إحياء التراث سُلطت الأضواء بشكل فج على العقائد الوثنية وأساطيرها ، تلك التي سادت المنطقة قبل الرسالة الاسلامية بآلاف السنين ، وتحت شعار إحياء التراث راح كل قطر عربي وبمعزل عن الآخر ينسب له كل نتاج التراث القديم والثقافة الفلسفية والأدبية اللتين سادتا في عصور قديمة مما أدى إلى إضافة عنصر جديد من عناصر تغذية التيارات الاقليمية والطائفية .

وحتى إحياء التراث العربي الاسلامي لم يسلم من تسلط الأيدي الغربية والأخرى المحلية المغرضة التي حاولت بشتى السبل النيل من قيم التراث الاسلامي ومثله وراحت أساليب الدس تطول كل اتجاه إحيائي ، إن كان في العقائد أو الفكر أو الفقه أو التاريخ والسِّيَر وغير ذلك فإذا كان إحياء التراث الأسطوري يقصد من ورائه إبعاد الفكر العربي والاسلامي عن العقيدة فإنه لا محالة إحياء وهمي لأنه في جانبه الآخر قتل وموت للعقيدة الاسلامية السامية ماذا يحيي وهو في نفس الوقت يقتل ويُميت ؟

غير أن طبيعة التفكير الغربي الاستعماري التي تتسم بالتخطيط المدمِّر وجدت في إحياء التراث الأسطوري العربي وسيلة من وسائل توجيه الشخصية العربية والنفسية نحو إيقاظ التاريخ والنفخ فيه ، لأن الحاضر لا يبشر بأي خير

على النطاق الواقعي التطبيقي للأمة العربية الاسلامية .

لقد رافق عصرَ النهضة العربية مع بداية هذا القرن تَدَافُع استعماري غربي باتجاه احتلال المنطقة جغرافياً وفكرياً واجتماعياً ونفسياً . مع أن النهضة كانت في وجه من وجوهها تعبر عن الانبهار العربي بالحضارة المادية الأوروبية التي قضت على الروح وكُرست للمادة . ومع أن هذه النهضة أيضاً لم تقتصر على إحياء اللغة وآدابها بل تعدتها إلى ما بعد الاسلام غارقة في أساطير الوثنية العربية ورافعة من شأنها .

ومنذ أن جسد المشروع الغربي أكبر طموحاته في صنع الكيان الصهيوني تشهد المنطقة تراجعاً في جميع مجالاتها . وهذا ما دفعها إلى التركيز على بعث الماضي والاعتزاز به نظرياً دون الوقوف طويلاً عند الغايات الكبرى والطموحات الجماهيرية التي تنشد الوحدة والقوة والمنعة والحرية الشخصية والاجتماعية التي لا تتنافى مع منطق التوحيد ، منطق الدستور القرآني . ولو أتيح للأمة العربيةوالاسلامية أن تحقق التوازن الحقيقي مع ذاتها أولاً ومع أهدافها وغاياتها ثانياً لكان التراث جزءاً من أجزاء التكوين الشخصي الكامل وليس هو كل شيء لأن الوحدة وتحقيق حرية العقل العربي والشخصية العربية . يبعث في الأمة العزة بحاضرها والافتخار في التصدي للحضارة المادية بحضارة تتفوق عليها مادياً وروحياً ، وهذا بالطبع هو التوازن الحقيق الذي يبعث الأمة ويبعث تراثها المحمّي من الدس والتشويه واللاواقعية . يضع التراث في حجمه الحقيقي من حيث هو جزء من التاريخ الذي يعتز به وجزء من صنع الحاضر الزاهي المنتصر في كافة ميادين الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية وغيرها .

أما أن تركز الأمة على بعث التراث وتتوانى عن تحقيق طموحات الحاضر فهذا هو ما يشير إلى العجز والسقوط أمام التحديات المعاصرة ، ويشير بالتالي إلى أنّ هناك في الشخصية عدم توازن ، وعدم التوازن يؤدي دوماً إلى التخبط والانهيار وعدم تحمل أي صدمة تتلقاها الشخصية من الخارج أو من الداخل وهذا ما نلمسه في الواقع العربي الاسلامي منذ عشرات السنين ، إن التراث الأسطوري الذي خلّفته المنطقة لا بد وأنه يحمل في جوانبه إضاءات قد تستفيد منها ، وهو بأي شكل من الأشكال لا يخلو من حكمة وعبرة ، أو درس أو استفادة .

ولـو أن هذه الأسـاطيـر أُخذت بجـانبهـا الأدبي الفلسفي غير المـرتبط بـالـوثنيـة وغيـر المـرتبط بغايات الاحياء الاقليمي الطائفي الضيّق لكان الأمر مختلفـاً تمـامـاً ولكن هيهـات . . لأن التخلص من ذلك الارتبـاط يعني العـودة بـالبحث في منـابـع الحكمـة والمعـرفة ، وهـذا يؤدي إلى العودة للقرآن الكريم وللاسلام بشموليته وهذا ما يقلق الكثيرين من الغربيين والصهاينة والعملاء الفكـرّيين الاقليميين الطـائفيين ويحفـزهـم القلق إلى العمل الدؤوب لضرب أي نهـوض إسـلامي يشمل الفكر المنفتح والـوحدة والحـرية الحقيقية للجماهير العربية والاسلامية .

هوامش الفصل الأول

١) المنجد ص ٣٣٢ ـ ٣٣٣ .
٢) صموئيل هنري هوك . منعطف المخيلة البشرية صفحة ٩ . ترجمة صبحي حديدي دار الحوار اللاذقية ط ١ ١٩٨٣ .
٣) الأسطورة في الأدب الفرنسي المعاصر ترجمة سامية أسعد مجلة عالم الفكر الكويتية المجلد ١٦ ص ١٠٩ ١٩٨٥ .
٤) إلياد : جوانب من الأسطورة ١٩٦٣ نقلاً عن مجلة عالم الفكر الكويتية المجلد ١٦ ص ١١٠ ١٩٨٥ .
٥) خلدون الشمعة : مدخل إلى مصطلح الأسطورة . مجلة المعرفة السورية العدد ١٩٧ ـ ١٩٧٨ .
٦) أحمد أبو زيد : الرمز والأسطورة والشعائر مجلة عالم الفكر المجلد ٩ ٤ شباط ١٩٧٩ .
٧) شوقي عبد الحكيم : الفولكلور والأساطير العربية ص ٤٨ دار ابن خلدون دون ت .
٨) أنيس فريحة : ملاحم وأساطير من الأدب السامي ص ٢١٢ دار النهار للنشر ط ١ عام ١٩٦٧ .
٩) الأساطير العربية قبل الاسلام ص ١٤٠ .
١٠) خزانة الأدب مجلد ١١٧/٤ وما بعدها .
١١) دكتور عبد الغني زيتوني الوثنية في الأدب الجاهلي منشورات وزارة الثقافة دمشق ١٩٨٧ .
١٢) عبد الوهاب النجار قصص الأنبياء صفحة ١١٨ دار الخير دمشق ١٩٩٠ .
١٣) الآيات ٦٩ ـ ٧٠ ـ ٧١ ـ ٧٢ ـ ٧٣ ـ ٧٤ ـ ٧٥ ـ ٧٦ سورة الشعراء .
١٤) أخبار مكة ٦٩/١ و١٢٦ .
١٥) صحيح البخاري ١٢١/٥ .
١٦) السيرة النبوية ط ١ ـ ص ١٥٢ .
١٧) السيرة النبوية جزء ٢ صفحة ٢٤٣ .
١٨) السيرة النبوية جزء ١ ص ٣٢ .

الفصل الثاني

الإسلام والخرافة

الإسلام والخرافة

ترتبط الخرافة والمعتقدات الخرافية بالأساطير ارتباطاً وثيقاً ، فهي لا تستند في مكوّناتها على الواقع بل على الخيال والوهم ، وما يصنعه الناس فيها من تركيب ذهني ونفسي وهي بشكل أو بآخر تفصح عن عقلية الشعوب في عصر من العصور .

ولا شك أن الفرق بين الأسطورة والخرافة فرق بالكم وليس بالكيف . فالأسطورة نسيج كتابي شبه متكامل . بينما الخرافة هي نتف أسطورية أقرب إلى المعتقدات الخرافية التي لا يربطها ذلك الرابط القصصي الأدبي أو الملحمي كما نشاهده في الأساطير .

أو قد يكون للخرافة منشأ أسطوري من حيث هي منافية للواقع ومتقاربة مع الوهم ولكن تطور المعتقدات لا سيما الشعبية منها والبعيدة عن جوهر العقائد التوحيدية أدى إلى تهذيب الخرافة من حيث تركيبها اللغوي واختصارها بحيث تصبح غير متعدّيةِ السطرَ الواحدَ والذي يفصح عن عالم أسطوري وهمي قديم .

من أين جاءت التسمية ؟

درج الدارسون على استخدام مصطلح خرافة استناداً على ما يروون في كتب الأدب عن اسم رجل عربي كان اسمه (خرافة) وقالوا أن الجن اختطفه ثم

عاد إلى الانس ، فأخذ يحدث الناس بأحاديث عجيبة غريبة أسموها حديث خرافة، وصاروا يشبهون كل حديث غريب لا يصدقه العقل بحديث خرافة ومن ذلك ما قاله ابن خلدون في مقدمته (من يطلبون المال تحت الأرض يجدون وعاء خالياً أو معموراً بالديدان أو يشاهد الأموال والجواهر موضوعة والحرس دونها منتضين سيوفهم أو تميد به الأرض حتى يظنه حقاً أو مثل ذلك من الهذر ، ويتناقلون في ذلك أحاديث تشبه حديث خرافة[١] .

ويرى علماء الأساطير في الحكاية الخرافية محاكاة للظواهر الطبيعية أو الجوية أو لفصول السنة أو لأسماء الأفلاك ، بينما يرى علماء الانثروبولوجيا أن الخرافة تصدر عن تصورات دينية من الممكن أن تنشأ منفصلة بعضها عن بعض .

ويرى العالم الفرنسي (سانت بيف) أن الحكاية الخرافية بقايا طقوس قديمة[٢] على أية حال فإن الدارسين والمهتمين بدراسة منشأ الخرافة والحكاية الخرافية يرون فيها جانباً أسطورياً إلا أنها تختلف عن الأسطورة بشيء من منشئها وشيء من أسلوبها الأدبي .

وإذا كانت الأسطورة كما فهمناها في سياقها اليوناني الروماني القديم تُدخِل الآلهة في صلب موضوعها وملحميتها فإن الخرافة استندت على تصور قوى غيبيّة تتدخل في شؤون البشر وهذه القوى الغيبية ليست آلهة بالضرورة فقد تكون من قوى الجن والأبالسة والشياطين وحيث توجد هذه القوى يوجد السحر الذي يوهِم بقلب الأشياء وتجريدها من واقعيتها أو إضافة أشياء فوق العادة لها كوجود حصان طائر أو أسد ذي وجه بشري أو شجرة تتحول ليلاً إلى فتاة جميلة وما شابه ذلك من التصورات الوهمية .

وقد حاول بعض الباحثين وعلماء النفس المقارنة بين بعض الأحلام والخرافة حيث انسياح النفس (الروح في عالم غير واقعي لا رابط بين أجزائه) .

ويتحدث بعض الأطباء عن غرائب الحشيش وتناوله حيث يصطنع المدمنون حكايات خرافية أقرب إلى الحلم وهي بالفعل تتداخل مع أحلام اليقظة ولكنْ تحت تأثير خارجي مخدّر . فمن التأثير الخاص بالحشيش تنتج الرؤى وخداع الحواس . وفي وسع الانسان أن يقارن الخيالات التي يصطنعها مدمن الحشيش بفنون السحر التي نقلت إلينا منذ أقدم الأزمنة في الخرافة ، والحكايات الخرافية والشعبية .

ولا شك أن المنطقة العربية التي حفلت بحضارات قديمة قد حفلت أيضاً بحس خرافي كبير وهذا بالطبع عائد إلى عدة عوامل جغرافية كوجود الوديان والجبال والصحارى وعلاقتها بما تصوروه حول الجن والقوى الغيبية وعوامل نفسية وعقيدية واجتماعية . وما تزال تأثيرات المعتقدات الخرافية القديمة تؤثر إلى اليوم في كثير من الناس البسطاء في منطقتنا وهذا يقودنا إلى البحث عن مصادر الخرافة أو مكوّناتها لدى العرب قبل الاسلام .

١) إن وجود الأساطير لدى كل من البابليين والكنعانيين واليمنيين بشكل عام يدل على وجود معتقدات خرافية وحكايا خرافية ، وحيث وُجدت الأسطورة وُجدت الخرافة .

حفلت العقيدت اليهودية بكثير من الخرافات منذ نشأ كتاب التوراة وقد تناقلتها الألسن والقبائل حتى انتشر معظمها في مساحة واسعة من الأرض وارتبطت بغالبيتها بالسحر والجن وما أحيطت قصصهم مع النبي سليمان عليه السلام من هالة وتضخيم . فيها من الخرافة يفوق ما فيها من الواقع الديني بكثير .

٣ ـ تداخل الثقافات العربية والفارسية والهندية كان له الأثر الواضح في انتشار الخرافة والحكايات الخرافية ولا أدل على ذلك من قصص ألف ليلة وليلة ، ولنورد مثالاً واحداً لكل مصدر من هذه المصادر لندل على مدى انتقال الخرافة انتقالاً واسعاً .

١) في الأسطورة البابلية اعتقاد بالثور المجنّح الذي يرمز لإله عندهم . هذا المعتقد الخرافي انتقل إلى شعوب كثيرة وظل سائداً في الذهنية الشعبية إلى وقتنا هذا .

٢) في الأسطورة التوراتية اعتقاد بوجود ليوثان التّنين ذي الرؤوس السبعة وكيف يقتله الإله . هذا المعتقد الخرافي دخل الحكايات الخرافية العربية وغيرها من أبواب واسعة حتى أننا نجده في أساطير بعض الشعوب الأوروبية الشمالية . وقد وجدت حكاية خرافية تتحدث عن هذا التنين الطائر في الخرافات الاوكرانية وكيف تصارع مع ملك ملوك البلاد ثم صُرع بعد إصابة رؤوسه بإصابات بالغة قاتلة .

٣) أما التمازج بين الخرافة العربية والخيال الهندي والفارسي فقد أعطى كثيراً من قصص المغامرات التي لا تخلو من عنصر الجن وتدخل الغيلان

وغيرها أيضاً من السحرة والمشعوذين ولا أدل عليها من قصص السندباد وما يلاقيه في أسفاره من أمور في غالبيتها تعتمد على الخيال والتصور الوهمي .

الجاهلية والخرافة :

كان العرب يعيشون حياة الجاهلية قبل الاسلام وقد أخذت الخرافة حيّزاً واسعاً من تصوراتهم ومعتقداتهم وعقائدهم ، وكما قلنا سابقاً فقد تأثروا بما أحيط بهم من شعوب ، وبما دخل على حياتهم من تصورات أسطورية وخرافية عن طريق اليهود والفرس وما أوحت به طبيعة البيئة الجغرافية الصحراوية .

وقد ارتبطت الخرافة بالوثنية بشكل أو بآخر تماماً كما ارتبطت الأسطورة ، لقد كانت الخرافة في حياتهم ظاهرة اجتماعية نفسية نتجت عن تفاعل الأفراد في علاقاتهم الاجتماعية وتصوراتهم حول الحياة والمشاهدات الكونية كالنجوم والسماء والقمر والصحراء والريح والحيوانات .

ولأسباب عديدة منها ما ذكرناه ومنها ذلك التراكم الاجتماعي للعادات والتقاليد والمعتقدات تصبح الخرافة ذات قوى مؤثرة حتى في سلوك الأفراد .

إن تلك الخرافة أدت دوراً سلبياً كبيراً في عالم النفس الانسانية الجاهلية وذلك بسبب ارتباطها بعبادة الأصنام والاعتماد على تصورات تجسّد الشياطين وقوى خفية يدّعون صلتهم بها . وبشكل عام فإنها ولّدت إيماناً بقوة الخرافة والمعتقد وأصبحت المعتقدات الدينية الوثنية أحد المصادر الهامة للخرافة .

والجاهليون الذين تأثرت حياتهم بالخرافة لم يسلموا من خلطِها بعقائدهم الدينية مما جعلهم يعتمدون في كثير من الأحيان على المشعوذين والكهنة والسدنة ومن يدعون المعرفة بالغيب والسحر .

ولعل تعلمَ العرب الجاهليين عن الفرس وغيرهم شيئاً من علوم الفلك ساهم في الخلط بين وقائع كونية وبين مصائر البشر ، وربطوها ببعضها حيث الأسباب والنتائج التي لا تخرج عن الحس الأسطوري والخرافي أيضاً .

لقد جاء الاسلام ليصحح مسار العقلية العربية وعقليات الشعوب التي تلبستها الخرافة تارة وخلطت الوهم بالواقع تارة أخرى . وأنزل القرآن ليكون سبباً في غسل العقول مما علق بها من معتقدات متصوَّرة لا تستند إلى ربط

الأمور والظواهر ربطاً منطقياً مقبولاً . وقد أجابت آيات القرآن الكريم على تساؤلات الناس حول آلاف الأمور والقضايا التي كانت ترتبط بشكل أو بآخر بالخرافة .

وبيّن رسول الله صلى الله عليه وسلم كثيرا من الأمور التي كانت تشكّل في العقلية الجاهلية انحرافاً عن المنطق العقلي والتحليل لظواهر الكون تحليلاً يرتبط بحس علمي عقلي واضح . ومن خلال آيات الكتاب المبين يتضح لنا مسارُ مخاطبة الناس عامة ليخلصهم من تلك الخرافة وقد بدأت الآيات بخطاب العقل وحواره دون اللجوء إلى أي وسيلة ضغط أو إكراه على تقبل ذلك الحوار ونتائجه .

فآيات الكون الكبرى لا يمكن معرفة شيء عنها إلا عن طريق العقل والوعي ، فالشمس آية والقمر آية ، والليل والنهار آيتان كذلك النجوم والكواكب والأرض ، وخلق الابل وما شابهها آية ، وهي جميعها بحاجة إلى إعمال العقل وتشغيل الادراك والوعي ، وليست بحاجة لأوهام وربط بقوى الجن والجهل والخرافة والأسطورة .

وإذا أردنا أن نتعرف على موقف الاسلام من الخرافات فإننا نقف أمام عملية ردٍ عقلية متكاملة تظهر من خلال آيات القرآن الكريم وأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فحول الشمس قالوا الكثير والكثير عن حجمها عن منشئها وغروبها وشروقها . تقول الخرافة إن الشمس عند غروبها تغطس في البحر ، أو أنها تدخل في مغارة كبيرة ترتاح حتى الصباح حيث تشرق من جديد .

فرد القرآن على ذلك بآيات كثيرة رافضاً مقولاتهم الخرافية . فتحدث عن تعاقب الليل والنهار وسير الشمس والكواكب في مدارات تسير بقدرة خالقها ضمن نظام كوني دقيق جداً قال تعالى في سورة الرحمن : ﴿ **الرحمن علم القرآن خلق الانسان علمه البيان ، الشمس والقمر بحسبان والنجم والشجر يسجدان** ﴾ ١ـ٦ .

ويقول تعالى في سورة فصلت : ﴿ **ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن إن كنتم إياه تعبدون** ﴾ ٣٧ .

ويقول تعالى في سورة الحديد : ﴿ **يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وهو عليم بذات الصدور**[٦] ﴾ لقد رفض القرآن الكريم منطق

الجاهلية ، وهذا ما يؤكد أيضاً تعارض القرآن والعلم مع الخرافة ومنطقها .

لقد تحدثت الخرافة عن كسوف الشمس فقالت إن حوتاً كبيراً يريد ابتلاعها . وقال بعضهم إن الكسوف مرتبط بحزنٍ على رجل عظيم وعندما توفي أحد أبناء رسول الله صلى الله عليه وسلم تصادف أن كُسفت الشمس ، فظن الناس أنها كسفت حزناً على وفاة ابن النبي صلى الله عليه وسلم ويُروى أن النبي قال **(إن الشمس والقمر لا ينكسفان لموت أحد فإذا رأيتموهما فصلّوا وادعوا حتى ينشكف ما بكم)**(٣) .

وقد قيل عن القمر مثل ما قيل عن الشمس فقد أوردت الخرافات أن ولادة الطفل والقمر باهت أي في آخر دورته وأثناء الجزر نذير بالمرض لأن الحياة ينبغي أن تجيء مع المد وتذهب مع الجزر . وتضيف الخرافة بقولها : إن القمر عريان لأن أي لباس لا يتلاءم معه بسبب تقلب حجمه من الزيادة إلى النقصان وبالعكس .

وورد في الخرافات أن القمر كان يلاحق الشمس في غير انقطاع بمطارحات الحب حتى غضبت الشمس في النهاية فلطخت وجهه المستدير بالرماد لكي يتركها في سيرها الهادىء ومنذ ذلك الحين والقمر يحتفظ بتلك البقع السود .

ومن خلال ذلك نرى أن الانسان يعيد المظاهر الكونية إلى معتقدات خرافية يرفضها العقل ولا تتطابق مع منطق القرآن والاسلام .

وقد تجاوزت بعض الخرافات الاعتقادات المبسطة لتصل إلى حد ربطها بالخالق أو بآلهة متعددة وهذا ما عهدناه لدى الشعوب قبل الاسلام . وقد ورد على سبيل المثال أن السماء هي بقرة كبيرة تمنح البشرية الخير والعطاء من حليبها السماوي ولذلك أصبحت مقدسة لدى الفراعنة ومُثّل لها بتمثال منحوت يُعبد في احتفالات وأعياد دينية .

وقد صحّحت آيات الكتاب المبين ماران على عقول الناس من جهل بمظاهر الكون والطبيعة : يقول تعالى في سورة يونس : ﴿ **هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نوراً وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ، ما خلق الله ذلك إلا بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون**(٥) ﴾ .

لقد أوضحت آيات القرآن الكريم أن الله هو خالق الشمس والقمر وهو الذي بين لنا ماهية كل منهما ، ثم بين كيف أن الغاية من صغر القمر وكبره

بالتدريج ليدل البشر على مسلك صحيح يعرفون من خلاله عدد السنين والأيام . إن ما خلقه الله سبحانه وسخره للناس درس للعالمين المتعلمين وليس للجهلاء من الناس . لقد أراد القرآن أن يلفت نظر الذين يبحثون عن الحقائق ورفيقهم العلم والحس العلمي وليس اتباع الظن أو السير على طريق آبائهم حتى ولو كانوا هم وآباؤهم جاهلين يرفضون المعرفة .

ومرة أخرى تقول الخرافة إن بعض الأجرام السماوية تطاردها بعض الوحوش الضارية التي توشك أن تتلقفها ، ومن واجب الناس أن تُفزِع تلك الوحوش بإثارة ضجة ما لتطردها ، ويقوم الناس بإثارة الضجة بالضرب على أدوات لها صوت ورنين وبشكل جماعي حتى تهرب الوحوش ، وكان العرب إذا خسف القمر ضربوا الطست وقالوا : يا رب خلصه وقد بقيت هذه المعتقدات في الذاكرة الشعبية حتى وقت متأخر من هذا القرن. وكان الفلاحون في كثير من مناطق الريف العربي إذا ما رأوا خسوف القمر خرجوا إلى الحارات والشوارع يضربون على قطع (تنكية) بعصي صغيرة ويغنون قائلين :

اتْـرِكْ قمـرنـا يـا حـوت قبل نـطـلـع لك بـالـعـود

وتقول الخرافة إن القمر إذا خسف واسودّ لونه فإن الحرب وشيكة الوقوع ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كسوف الشمس وخسوف القمر « **إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينكسفان لموت أحد ولكن الله تعالى يخوّف بهما عباده**(٤) » .

يقول تعالى في سورة يس الآيات ٣٧ ـ ٣٨ ـ ٣٩ ـ ٤٠ ﴿ **وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون ، والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم ، والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم ، لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون**﴾.

وقد انتشرت بين العرب خرافة تقول إن الأرض محمّلة على قرني ثور كبير فإذا أراد أن يستريح يبدل الأرض من قرن إلى قرن ولذلك تحدث الزلازل .

ويرد عليهم القرآن الكريم بمنطق العقل والمنطق ، ويبيّن لهم أنه خلق الجبال رواسي لتحفظ توازن الأرض . وليوضح أن الأرض تسبح في الفضاء في مسار دقيق محدد يقول تعالى في سورة الأنبياء : الآيات ٣١ ـ ٣٢ ـ ٣٣ ﴿ **وجعلنا في الأرض رواسي أن تميد بهم وجعلنا فيها فجاجاً سبلاً لعلهم**

يهتدون ، وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً وهم عن آياتها معرضون . **وهو الذين خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل في فلكٍ يسبحون ﴾** وقالوا إن ما يسمّى درب التبانة أو ما يعرف في المأثور الشعبي ببنات نعش أنها سُميت بذلك لأنها تحمل نعش أخيها المقتول منذ الأزل وتدور باحثةً عن قاتله . وطوافها في السماء دائم أبدي .

ويسخر القرآن الكريم من هذه الخرافات ويتجاوزها ليحدث العقول الواعية ويقول لها إن تلك النجوم ما هي إلا وسيلة للاهتداء يقول تعالى في سورة الأنعام الآية ٩٧ ﴿ **وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر قد فصّلنا الآيات لقوم يعلمون ﴾** وقد عرفت شعوب الأرض قاطبة كيف تهتدي في تحديد اتجاهات السير في البر والبحر فقالوا إن نجوم القطب التي هي على شكل كرسي مقلوب تقع إلى الشمال وأن الابرة المغناطيسية تتجه برأسها نحو الشمال حيث تشير إلى ذلك القطب .

وقد عرف العرب جميعاً كيف يسيرون في الصحراء الشاسعة لا يهتدون إلا من خلال النجوم والكواكب التي تنير دروبهم وترشدهم في سفرهم وترحالهم .

لقد سمّى العرب النجوم بأسماء كثيرة وعرفوا مواقعها في السماء وكيفية سيرها ووقت ظهورها ، وكل ذلك يشير إلى أن كل شيء في هذا الكون خلقه الله ليكون مسخّراً لبني الانسان .

يقول تعالى في سورة الرعد الآية ٣ ﴿ **الله الذي رفع السموات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمّى ، يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم تؤمنون ﴾** .

لقد قدست بعد الشعوب (بنات نعش) استناداً إلى خرافة أو أسطورة **وهذا** التقديس أوصل بعض تلك الشعوب لعدّها من الآلهة السماوية كالمريخ والزهرة ، وهذا يخالف منهج التوحيد القرآني الذي يدعو إلى التعرف على الله الواحد خالق كل شيء .

وكذلك الأمر بالنسبة للأرض وأهلها وتربتها وماذا كانت عليه ، فقد دارت حول ذلك خرافات كثيرة تناقلتها الشعوب عن بعضها ضمن تراث شفوي شعبي مستندٍ إلى النقل دون إعمال العقل بالتحليل أو دراسة المظاهر دراسة عقلية استقرائية ، يقول تعالى في سورة الأنبياء الآية ٣٠ ﴿ **أولم ير الذين**

كفروا أن السماوات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما ، وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون ﴾ .

لقد دحضت هذه الآية مزاعم الجاهليين الخرافية . حتى مزاعم بعض الذين ادعوا العلم بعد ذلك ، وقد أعطى القرآن فيها نظرية علمية عن أصل الأرض وما حوته السماء من شمس ونجوم ولم يدرك الناس ذلك إلا عن طريق ما جاءهم من نظريات الغرب حول النجم الكبير الذي انفجر فشكّل الكواكب ، وإلاّ لكانوا على جهلهم الذي يقول إن الأرض تسبح في بحر كبير وهي على ظهر حوت أو على قرني ثور .

وتدور حول الليل خرافات كثيرة كونه من مظاهر الكون الكبرى فالليل لدى بعض الشعوب وحش مهول يستقر فكه السفلي في الأرض ، في حين يصطدم فكه العلوي في السماء . وتقول الخرافة إن الشمس كانت تود بصفة أساسية أن تشرق على الدوام عند ذلك كان على الانسان أن يطلب من الليل مساعدته ، أو كان عليه أن يحجب الشمس بالليل .

ويعتقد الناس في الوسط الشعبي أن الليل وظلامه هما مسرح مناسب لظهور الأشباح الشريرة وخاصة الجن . لذلك فإنهم يحذرون العديد من الممارسات عند حلول الظلام خشية أن ينالهم أذى هذه الكائنات .

لقد ورد في القرآن الكريم كثيرمن الآيات التي تشير إلى أن الله سبحانه جعل الليل سكناً لبني الانسان ، كما النهار معاشاً ، وقد حذر الرسول صلى الله عليه وسلم من شرود الأطفال في الليل . فقد ورد في أحد أحاديثه صلى الله عليه وسلم ، أنه قال « **إذا استجنح الليل أو كان جنح الليل فكفّوا صبيانكم فإن الشياطين تنتشر حينئذ** . . »(٥)

واستندت الخرافة إلى ما ورد من أساطير الشعوب المتأثرة ببيئتها الطبيعية من صحراء أو غابة أو جبل أو ساحل ، غير أن انتشارها كان يجد في نفوس الجاهليين صدى وترحيباً لا سيما تلك الخرافات التي تتحدث عن مظاهر الرعب والخوف ، كالموت والفراق والسفر البعيد وما إلى ذلك ، فكانوا يرون الموتى حسب زعمهم يركبون ريح الليل وينفثون أحقادهم . ويعتقدون أن الليل يجب أن يُصان سرّه ولا ينتهك ظلامه ، وانتهاك الظلمة يتم بالصفير أو إخراج غربال من البيت أو تمشيط الشعر وما شابه ذلك .

وقد ربطوا ذلك ربطاً خرافياً مع الرزق والعيش والموت . وقد أورد

القرآن الكريم الكثير من الآيات الموضحة لهذه المظاهر بصورة موضوعية عقلية تحلّ كافة الاشكاليات العقلية والنفسية التي كونت تلك الخرافات ورسختها في الأذهان والنفوس .

يقول تعالى في سورة الانعام الآية ٩٦ ﴿ **فالق الاصباح ، وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا ذلك تقدير العزيز العليم** ﴾ .

وحتى يتضح الأمر ونفرق بين ما هو خرافي وبين ما هو ديني له استناداته نرى أن آيات القرآن الكريم وأحاديث نبينا صلى الله عليه وسلم تحدثت جميعها عن ظاهرة الليل كآية كونية مثل بقية آيات الله . وعندما تشير إلى الليل فإنها تهدف إلى التربية أولاً ، وإعطاء الظواهر حقها لا تنقص منه ولا تضخّم حوله أو تنفخ فيه من روح الوهم والتخيّل يقول تعالى في سورة الفلق ﴿ **قل أعوذ برب الفلق ، من شر ما خلق ومن شر غاسق إذا وقب ، وشر النفاثات في العقد ، ومن شر حاسد إذا حسد** ﴾ .

فالغاسق هو الليل إذا أظلم حسب ما قاله المفسرون . والآيات تطلب من الانسان أن يتعوذ بالله من ظلمة الليل ، ولم تقل إن الأموات يخرجون في الليل ينفثون الأحقاد وما شابه ذلك من الخرافات .

والرسول عليه الصلاة والسلام عندما يحذر من خروج الصبيان في الليل فإنه يوضح أن الشياطين تصطاد في هذه الظلمة الضعاف من الناس . فتوسوس لهم وتوهمهم بأشياء قد تؤدي إلى حالة نفسية مرضية ، فالأطفال كما هو معروف ضعيفو الارادة رقاق النفوس سذج العقول وهم عرضة للتوهم فلذلك حذر الرسول صلى الله عليه وسلم من خروجهم في الليل ، ولم يحذر الكبار لأنهم أقدر على مجابهة وساوس الشيطان وألاعيبه النفسية .

أما أن الخرافة تربط بين معتقدات معينة وبين الرزق فهذا ما لا يقبله قرآن ولا حديث وقد تحدث القرآن الكريم وتحدثت السنة النبوية الشريفة عن الرزق والسعي كثيراً وذلك من خلال منطق واقعي ليس فيه لبس ولا خرافة .

يقول تعالى في سورة الملك الآية ١٥ ﴿ **هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور** ﴾ .

ويقول تعالى في سورة الملك أيضاً الآية ٢١ ﴿ **أمَّنْ هذا الذي يرزقكم إن أمسك رزقه بل لجّوا في عتوٍ ونفور** ﴾ .

يقول تعالى في سورة الروم الآية ٤٠ ﴿ **الله الذي خلقكم ثم رزقكم ثم**

يميتكم ثم يحييكم هل من شركائكم من يفعل ذلكم من شيء سبحنه وتعالى عما يشركون﴾.

ويقول تعالى في سورة الروم أيضاً الآية ٢٨ : ﴿ **ضرب لكم مثلاً من أنفسكم هل لكم من مّا ملكت أيمانكم من شركاء في ما رزقناكم فأنتم فيه سواء . . .** ﴾ .

فالآيات الكريمات تؤكد أن الرزق من عند الله ، والله يحث على السعي والعمل حتى ينال الانسان ما يحييه من قوت ودفء وما إلى ذلك .

وما قيل عن الليل في الخرافة كذلك قيل عن الرياح والغيوم والشتاء . فبسبب خوف الانسان من الرياح اعتقد أنها تحدث نتيجة صفير أحد الغيلان ، وأنها أي الرياح إذا اشتدت فإن حرباً وشيكة الوقوع . بينما يوضح القرآن الكريم أن الريح مسخرة لبني البشر والشجر والطير ، فالرياح لواقح تنقل غبار الطلع كي تثمر الأشجار . والرياح تحمل الغيوم المحملة بالخير والمطر .

وتناولت الخرافات كثيراً من الأحاديث حول النار والبرق والرعد والماء جميعها ليس لها أساس منطقي عقلي فقالوا مثلاً إن المطر يحدث بسبب بكاء أحد الملائكة ، وأن النار التي كانت توقدها قريش في المزدلفة إنما كانت نيران الإله الجاهلي قزح .

ويقول تعالى في سورة الأعراف الآية ٥٧ ﴿ **وهو الذي يرسل الرياح بُشراً بين يدي رحمته حتى إذا أقلّت سحاباً ثقالاً سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكّرون** ﴾ .

وقد فسر العلم منذ زمن أن الغيوم الثقيلة هي الغيوم المحملة بالمطر ، وهي التي تكون قابلة للسقوط مطراً على الأرض لتسقي الزرع والحيوان والانسان ، وبذلك يكون القرآن الكريم قد أوضح للعقل البشري سبل العلم ورفض الخرافة لأنها لا تتوافق مع المنطق العلمي السليم ، ويعتبر الموت من أهم القضايا التي واجهت الانسان منذ نشوء البشرية . ولما كان هذا الموت لغزاً محيراً فقد حاولت الشعوب تفسير ظاهرته تفسيرات مختلفة حسب اختلاف أنماط التفكير والبيئة وأدخلوا في معتقداتهم كثيراً من الأفكار حول الموت وما بعده ، وتداخلت هذه المعتقدات بالأساطير والخرافات وحتى بالسلوك اليومي لبني البشر .

ولما اتفقت الرسالات السماوية على أن آدم هو أول البشر مستندة إلى ما أنزل الله سبحانه من توضيح للخلق وأسبابه وغاياته فقد كثرت أيضاً الأقاويل وتراكمت التصورات المتخيلة لبني الانسان حول الخلق وآدم وما يدور حوله من أمور ، حتى بات اختلاط الوهم بالحقائق سمة من سمات التفكير البشري . خاصة أن الجهل بالقرآن وعدم فهم نصوصه فهماً صحيحاً أفسح المجال لخرافات وأساطير دخلت العقل البشري وشوهت الحقائق مما أدى إلى فرز تلك المعتقدات الخرافية .

فحول الموت قالت الخرافة إن الانسان لا بد أن يموت فوق البقعة التي خلق من ترابها وبالتالي لا يمكن أن يموت في سواها . وهذا بالطبع مخالف لقوله تعالى ﴿ **وما تدري نفس بأي أرض تموت** ﴾ .

أما عن خلق آدم فتقول الخرافة ، إنه خُلق من تراب وعُجن بدم إله مقتول . وهذا بالطبع يستند إلى مقولات الأساطير السومرية الوثنية حيث تقول أسطورتهم بأن الانسان الأول خلق من عجينة ممزوجة من الطين ودماء الإله إبسو . فيأتي القرآن الكريم ليرفض مثل هذه المقولات . وهناك آيات كثيرة توضح كيفية خلق الانسان والغاية من خلقه . وكيف اختاره الله على أحسن صورة ركبه عليها ليكون متميزاً عن بقية مخلوقاته ﴿ **لقد خلقنا الانسان في أحسن تقويم** ﴾ .

ولو قارنا بين ما تقوله الخرافات وبين ما جاء في القرآن الكريم لوجدنا أنهما يقفان على طرفي نقيض . فالقرآن يخاطب العقل ، والخرافة مبني أساسها على توهّم وجهل . والقرآن يضع أسس العلم ، والخرافة تذهب بالعقل وتعبث به ، والخرافة تخلط بين الأسطورة والمعتقدات الوثنية ، والقرآن يدعو إلى الحقائق والوحدانية .

يقول تعالى في سورة البقرة ﴿**وإذ قال ربك إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم مالا تعلمون، وعلم آدم الاسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة، فقال انبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين. قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم**﴾. ٣٠ ـ ٣١ ـ ٣٢ .

ويقول تعالى في سورة النحل ﴿**وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث**

الله من يموت بلى وعدا عليه حقاً ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾(٣٨)

ويقول تعالى في سورة الواقعة ﴿**أفرأيتم ما تمنون أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين على أن نبدل أمثالكم وننشئكم في ما لا تعلمون﴾** ٥٨ ـ ٦١ وقد وردت في سورة آل عمران الأية التي تقول ﴿**كل نفس ذائقة الموت وإنما توفون أجوركم يوم القيامة فمن زُحرج عن النار وأدخل الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور﴾** ١٨٥

وتكررت عبارة كل نفس ذائقة الموت في سورة الأنبياء الآية ٣٥ وفي سورة العنكبوت وقال تعالى في سورة لقمان الآية ٣٤: ﴿**وما تدري نفس ماذا تكسب غداً وما تدري نفس بأي أرض تموت إن الله عليم خبير﴾**

وقال تعالى في سورة آل عمران الآية ١٤٥: ﴿**وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتابا مؤجلاً.....﴾**

فالموت في حقيقته ليس خرافة، إنما هو واقع، لا يستطيع إنسان دفعه ومنعه. لكن الذي حيّر الإنسان قبل الإسلام ما بعد الوت وألقى أسئلة على نفسه لم يستطع أن يجيب عنها فجاء القرآن ليوضح للجاهلين وللعالمين أن الموت نقلة نوعية خاصة من دار إلى دار. وما الحياة الدنيا إلا دار امتحان واختيار فمن اختار طريق الطغيان والشرك والظلم تعس في موته لأنه سيكون بداية الطريق نحو العذاب المهين.

الخرافة والقوى غير المنظورة:

لعل أكثر ما يشير إلى القوى غير المنظورة هم الجن رغم أن الملائكة تدخل ضمن هذا الاطار ولما كانت الملائكة مخلوقات نورانية خلقها الله لتسبيحه وتنفيذ أوامره في ملكوت السموات والأرض فإن ما نطلق عليه الخرافة لا يرتبط بقريب أو بعيد بالملائكة وقد انفردت أحاديث الناس عن الخرافة بالجن وربطتها بهذه المخلوقات لاعتقادهم أنها تتدخل في حياتهم وتتسلط عليهم أو تمازحهم، ويستعين بها بعض السحرة والمشعوذين ظناً منهم أنها قادرة على فعل الخوارق.

وبسبب ما توارثه العرب عن غيرهم من الأقوام السالفة كعاد وثمود والفراعنة وغيرهم وبسبب حياتهم الصحراوية القاسية فإنهم تخيلوا تلك المخلوقات ونسبوا لها فعل الخوارق وفعل مالا يعهده الناس في حياتهم.

لقد ذكر القرأن إبليس وذكر الملائكة وذكر الجن. فإبليس من الجن غير أن هذه الصفة التي وسم بها خصصته وبينت طبيعته فهو والشر سواء. أما الجن فعلى الرغم من أن طبيعة خلق الشيطان من نفس الطبيعة التي ذكرها القرأن إلا أنهم مخلوقات غير مرئية وهم شعوب وقبائل وذكور وإناث. يفكرون ويعتقدون يؤمنون أو يكفرون. وقد جاء ذكرهم مفصلاً في سورة الجن وهي السورة الثانية والسبعون في القرآن الكريم.

يقول تعالى ﴿**قل أوحي إلي أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرأنا عجباً يهدي إلى الرشد فأمنا به ولن نشرك بربنا أحدا، وأنه تعالى جد ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولدا وإنه كان يقول سفيهنا على الله شططاً وأنا ظننا أن لن تقول الإنس والجن على الله كذبا. وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا. وأنهم ظنوا كما ظننتم أن لن يبعث الله أحدا. وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرساً شديداً وشهبا. وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا. وأنّا لا ندري أشر أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشدا. وأنا منا الصالحون ومنادون ذلك. كنا طرائق قددا. وأنا ظننا أن لن نعجز الله في الأرض ولن نعجزه هربا. وأنا لما سمعنا الهدى أمنا به فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخساً ولا رهقا وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون فمن أسلم فأولئك تحروا ورشدا**﴾ الآيات من ١ ــ ١٤ فهذه الآيات تشير إلى أن النبي صلى الله عليه وسلم قد أوحي إليه من قبل جبريل عليه السلام أن نفراً من الجن سمعوا القرآن وهو يتلى. فتعجبوا وأدركوا أنه حق من الله فأمنوا بالله إيمان يقين. فليس لله صاحبة ولا ولد. وقد أشارت الآيات إلى أن الجن كانواعلى ضلال وكفر فآمن منهم من أمن، وأدركوا أن السفهاء منهم قد أضلوهم عن طريق الله والايمان به.

وتصرح الآيات بأن بعض الانس كانوا يستعينون ببعض الجن فزادوهم تعباً لأن الاستعانة بغير الله إرهاق وذل و خسران في الدنيا والآخرة. وتصرح أيضاً أن بعض الجن حاولوا اختراق السماء لاستراق السمع فوجدوها قد ملئت

حرساً شديداً من ملائكة الله سبحانه وقد حضرت الشهب الحارقة لتحرق من يحاول أن يفعل ذلك. وقالوا إنا كنا نمكث في زوايا نظن أنها خافية مخفية نسترق السمع منها. ويعترفون أن أسرار السماء لم ولن يعرفوها أهي خير للبشر أم شر. وهذا اعتراف صريح بأن الجن غير قادرين على التنبؤ بالغيب لأن اسرار الغيب من اختصاص الخالق وحده، ويعترف الجن أنّ منهم الصالحين وأن منهم الكافرين. وأنهم أمم وفرق وقبائل متنوعة. والقرأن الذي استمعوا له يرشد إلى طريق الفلاح، والايمان، فمن آمن بكلام الله فقد نجا واسترشد ومن كفر به فقد ضل سواء السبيل.

فمن خلال تلك الآيات التي تتحدث عن الجن ندرك أن الله سبحانه أجابنا عن تساؤلنا في طبيعة الجن، فوضح القرآن طبيعتهم وأعمالهم، وأراد كتاب الله أن ينبه المسلم أن الجن مخلوقات كأي من خلق الله محدودة الفعل أمام قوة الله وعظمته وقدرته، وهي ليست قادرة على التنبؤ بالمستقبل والغيب. وأن الإنسان إذا ما استعان بها أتعبته لأنها لا تستطيع فعل شيء أكثر من حدودها.

ورغم توضيح القرآن الكريم لطبيعة الجن فقد ظل الكثيرون ولا سيما في الأوساط الشعبية غير المتعلمة واقعين تحت سيطرة مقولات خرافية يلعب الجن دوراً أساسياً فيها، لقد قالوا حسب معتقداتهم الخرافية إن الجن بشكل عام مرعب ويؤذي ويجلب النحس والمرض والفشل وينشر الخوف بين الناس.

وتقول خرافات كثيرة إن الجن الكافرين يؤذون الأطفال ويخطفونهم ويتلفون الزرع ويحرقون الدور، وتقول أيضاً إن الجن يميلون بطبعهم إلى المرح والدعابة، ويحلبون الأبقار. ويعدون الطعام ويقال إن منهم فئة تعطف على الفقير فتحمل له الطعام وتملأ كيسه بالنقود ويقال عن بعضها إنها تعمل على إبطال السحر وتقضي على عمل الساحر الضار بالبشر.

وقيل أيضاً أنها تتزيّا حسب الظروف فتكبر وتصغر وقد تبلغ من الطول عنان الفضاء أو تحصر نفسها في نقطة ماء أو نقطة حَرف أو تتجسد في فأرة أو فيل. وتقول بعض الخرافات إن الجن ثلاثة أنواع أو أقسام قسم في الأرض وقسم في البحر وقسم في الفضاء. وهذا ما ترفضه أيات القرأن الحكيم، حيث صرح أن من الجن من يريد استراق السمع لكن السماء نفسها محروسة من قبل الملائكة ولا يمكن لجني أن يسرق شيئاً من أسرار السماء.

وتقول بعض خرافات السحرة والمشعوذين أن للجن ملكاً اسمه الملك

الاحمر وأن شر أنواع الجن هم الحمر والملك الاحمر أحد الملوك السبعة والذي يأتمر بأمره نفر غير قليل من الجن الحمر الذين هم أشد أذى لبني البشر.

وحول المعتقدات المرتبطة بالجن قالوا إن الانسان إذا تعثر مشية في الليل فإنه يكون قد داس على جنيّ. ويروون كثيراً من القصص والحكايا الخرافية حول صراع بين الانسان والجن أو يروون عن ملاحقة الجن لأحد الأشخاص.

وقد اعتقد العرب الجاهليون أن المواد التي تكوّن طبيعة الجن هي من النار والدخان والتراب، كما أن الجن حسب العقيدة الجاهلية المبنية على الخرافة خلقوا من بيضة، وقد ظن بعض الناس أن كل حدث لا يستطيع الانسان تفسيره بحواسه الخمس، لا بد وأن يكون مستحدثاً من قوى فوق طبيعية. وفي القرآن الكريم ما يشير إلى قدرات جنيّة فوق طبيعية، ولكن هذه القدرات حددت مقترنة بقصة سليمان عليه السلام قال تعالى «**قال ايها الملأ أيكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين. قال عفريت من الجن انا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك وإني عليه لقوي أمين**»الآيتان ٣٨ ــ ٣٩ .

وقد ظن العرب أن كل شيء مخيف أو أن أي صوت غريب أو بناء عظيم يستلفت النظر كان متعلقاً بالجن.

وقد لحق الكلاب والقطط السود شيئاً من الكره لاعتقاد الناس أن الجان يتمثل بها. خاصة الكلاب ذات النقرتين البيضاوين فوق عينيها. وقد يتورع الناس عن ضرب القط أو الكلب الأسود أو إيذائه كي لا يتعرضوا لأذى منهما. لا سيما إذا كان الجنّي من الكافرين الشريرين أو من المجوس عبة النار. وتقول الخرافة إن الجان أحياناً يبدو في هيئة إنسان يتميز بعيون من نار تلمع متوهجة في الظلام.

وأكثر ما يشاع من خرافات عن الجن أن غذاءه إنما يكون من دماء البشر خاصة والدماء بشكل عام أو من العظام وروث الحيوانات.

ماذا تقول الخرافة عن علاقة الجن بالانسان؟

توهم الناس بشكل عام علاقةً معينة، أو مجموعة علاقات تربط الانسان بالجن، وقد فصلوا فيها فأوردوا أنها قد تكون علاقة ودية أو شريرة.

وقد زعم العرب في عهدهم الجاهلي أن للجن علاقة بالانس، فقد يعشق جني أمرأة إنسية، وقد يعشق رجل من الانس جنية، وزعم بعضهم أن الجن والانس قد يتزاوجون وينجبون، وإن الجنيات يعرضن لصرع الرجال من الانس على جهة العشق لهم وطلب السفاد، وكذلك رجال الجن لنساء بني آدم. وقالوا إن بعض نساء الجن تتولى قتل الأطفال الصغار بشكل ما أو تقضي على الأجنة في ارحام الامهات.

وقد زعم العرب الجاهليون أن للشعراء شياطين تلهمهم الشعر، وأن الجن ذاتها تقول الشعر وتلقيه على ألسنة الشعراء أيضاً. وقد أورد ابو العلاء المعري بعضاً من أشعارهم في كتابه رسالة الغفران.

ويورد بعض الباحثين أن ما يتصل بالجن وحكاياتهم جُلبت عن طريق اليمن في الألف الثالثة قبل الميلاد باعتبار أن هذه المنطقة وقربها من البحر الأحمر ووقوعها على الخط الواصل بين الهند وفارس والجزيرة العربية هي الأكثر جلباً لتراث الشعوب الاخرى.

وقد لعب العرب دوراً كبيراً في ترويج خرافات الجن والمعتقدات المتعلقة بهم، فيقال مثلاً أن (بيذخ ابنة ابليس كان لها عرش على الماء وأن المريد لها متى ضاجعها وفعل معها ما تريد سحرته[٦]، ونسب بعض العرب لسابقيهم من القبائل العربية البائدة انحدارهم من أمهات جنيات مثل قبائل جرهم التي قيل انها جاءت إلى الوجود من نتاج ما بين الملائكة وبنات آدم٧

وتناقلت حكايات الجاهليين زعماً يقول أن الرجل يسمى عبقرياً نسبة إلى وادي عبقر، وأن الشاعر إذا ما أراد أن يكون عبقرياً في شعره فما عليه إلا مساكنة الجن في وادي عبقر باعتباره مسكناً لقبائل الجن.

ويستفاد من التعاليم الاسلامية أن الشعراء والمشعوذين هم أقرب إلى ما ينسب للجن من خرافات وأقاويل (يقول تعالى: ﴿**والشعراء يتبعهم الغاوون، ألم تر أنهم في كل واد يهيمون وأنهم يقولون مالا يفعلون**﴾

سورة الشعراء الآيات ٢٢٤ ـ ٢٢٥ ـ ٢٢٦ .

فالشاعر منبوذ إن لم يكرس شعره في الدفاع عن العقيدة والقيم السامية والمثل النبيلة. ويبدو أن الشعراء بشكل عام لا يتحاشون التوهم ومخالفة نواميس الحياة الدينية. فهم يخوضون في اقوال شتى. ويغوصون في عالم المتاهات والضلال. وتراهم يقولون مالا يفعلون لأنهم مخادعون ولا يتورعون من التضخيم إضافة للتكسب غير النزيه.

أما عن استعانة بعض الانس بالجن فقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك في سورة الجن كما أوردنا ويدعي بعض السحرة وبعض المشعوذين أنه يستدعي الجن، ليكشف له عن عالم الغيب ويشاركه في حل كثير من المشاكل. ويلجأ المشعوذ إلى النطق بكلمات يحاكي بها جنيّاً حسب زعمه ليوهم صغار العقول وضعاف النفوس من الحاضرين لديه أنه قادر على جلب الجن وبالتالي قادر على أن يجعله خادماً له يخبره بعالم الغيب والتنبؤ بالمستقبل.

وقد رويت قصص كثيرة في الاوساط الشعبية العربية عن بعض السخرة والمشعوذين أنهم عندما ماتواوجدوا لديهم أموالاً طائلة وذهباً وفضة ورُوي أن بعض السحرة يموتون ميتات سيئة تكون عبرة لغيرهم كأن يموت أحدهم ولا يدري بموته الناس إلا بعض أن تتفسخ جثته وتصدر الروائح المقززة المنفرة منها.

أما عن المعتقدات المتصلة بعالم الجن فقد ساهم بنشرها الوسط الشعبي كثيراً لما يدور حولها من عوالم مخفية مرعبة متوهمة.

تقول بعض خرافات الجاهليين أن الجن يسكنون البيون الخربة والأبار المهجورة وبعضهم قال إن الجن يحب أن يسكن في شجر الخروب، ويقال إن بعض البيوت يتوقف بيعها بسبب ما يشاع عن وجود جن فيها.

وقد ورد في خرافات العهد الجاهلي أن العرب حرموا السير والعمل في وادي برهوت ويبرين وصيهد وهي أماكن كانت تتواجد فيها قبائل عاد وثمود وطسم وجديس وجرهم والعماليق وإذا ما مرّ العربي فيها فإنه يلقي السلام خوفاً من إيذاء الجن له.

ومن هنا جاءت فكرة اعتبار القبور والأماكن المهجورة والخرابات بعامة مواطن للجن والعفاريت وقد لحقت بالجن حكايات وافدة مثل حكاية الفانوس السحري وخادمه، وقد ملئت المعتقدات الخرافية الهندية بها، وكذلك

بساط الريح الذي ينسبه بعضهم للنبي سليمان عليه السلام وهذا البساط حسب المعتقدات يطير به عدد من الجن كخادمين لمن يمتلك الحكم عليهم، ولا يخالفون له أمراً، وقد زخرت حكايات ألف ليلة وليلة برحلات السندباد وما للفانوس السحري من شأن معه.

وتناقلت بعض الحكايات أن كنوزاً ذهبية وضع عليها حراس من الجن قد يتبدى واحدهم على شكل ثعبان ينطق ويتكلم، أو على شكل غزالة، أو فتاة بارعة الجمال ويوردون قصصاً حول كيفية استخراج الكنز كقتل الفتاة التي تتحول بعض قتلها إلى كتل ذهبية، أو قتل الأفعى أو ما شابه ذلك، ولعل الذاكرة الشعبية احتفظت بهذه الحكايات عن طريق السماع ونشرها بين الناس باعتبارها تحمل في ثناياها شيئاً من الدهشة أو الاندهاش وحب الاستطلاع لعالم مجهول، وقد يقصد من ورائها الدفع للمغامرة أو الإخافة حتى لا يتورط أحد بالبحث عن الكنوز المتوهمة أو التي صنعها الخيال الشعبي.

ولو أمعنا النظر في خرافات الجن والشياطين لدى العرب وجدنا أن أكثر مصادرها من اليمن فقصة بلقيس ملكة سبأ وذي القرنين بالإضافة لقبائل بكاملها تنسب إلى الجن أو أن لها صلة وثيقة بالجن. وقد انتشرت هذه الخرافات في شمال الجزيرة العربية وتداخلت بالاساطير.

وقد لعبت التوراة دوراً كبيراً في نشر هذه الخرافات، فقد أوردوا أن جنّ سليان هم الذين شيّدوا مدينة (تامار) أو تدمر أي مدينة التمر، ومثل هذه الحكاية الخرافية وغيرها كانت منتشرة شائعة بين عرب العهد الجاهلي.

ولعل أبرز أشكال الجن الذي صنعها الخيال البشري ما يسمى بالغول، وأكثر الخرافات العربية لا تخلو من شخصيته، وينسب العرب لكائن خرافي يسمى «تأبط شراً أنه قتل غولة بضربة واحدة من سيفه فقتلها وأن الغولة عندما ضربها أول ضربة طلبت منه أن يضربها ثانية لكنه رفض.»

وترى الخرافة أن الغولة تسكن في الطرقات تنتظر الرعاة وحاملات اللبن والحليب. وقال الجاحظ إن الغول هو كل شيء من الجن يتعرض للسفار ويكون في ضروب الصور والثياب. والغول والغيلان في الاصل دابة أو نوع من الشياطين ومردة الجن تزعم العرب أنها تظهر للناس في الخلاء والخلوات فتتلوّن لهم في صور شتى وتغولهم أي تضللهم ولقد قرنه بعضهم بمصاصي الدماء، والغول شره يأكل قدراً كبيراً من الطعام، وهو رمز ذلك الكائن الذي

تجمعت حوله الكراهية من قبل الشعب. ويزعم كثيرون من عرب العهد الجاهلي أنهم شاهدوا الغول وقالوا إن له ظلفي حمار مهما تغيّر شكله ولونه وحجمه، وقد حظيت الحكايات الخرافية في الوسط الشعبي العربي بشخصيّة الغول وركبت تركيباً مشوقاً بحيث تحوي القصة بطلاً خارقاً يقضي على هذا الغول.

وفي تقديري وقبل أن نعرض لموقف الاسلام من هذه الخرافات أن الغول في المعتقدات والحكايات الشعبية ما هو إلا رمز للشر قبل أي إعتبار آخر.

أما ما يقال في الخرافة عن الزواج بين الإنس والجن فإن الخيال العربي الجاهلي بالغ فيه إلى حد ينافي أبسط قواعد المنطق، وقد أوردوا عدداً من أسماء الرجال الذين تزوجوا من جنيات. ومنهم على سبيل المثال عمر بن يربوع بن حنظلة التميمي، وجذع ابن سنان، وعمرو ذو الأذعار بن أبرهة ذي المنار وأمه الجنية العيوف إبنة الرائع. بل إن قبائل بأسرها انتسبت إلى الجن مثل بني مالك. وبني شيصبان وبني يربوع الذين تسموا ببني السعلاء أي السلعوة، كما أن قبائل بأكملها عبدت الجن مثل رهط طلحة الطالحات من خزاعة. ولقد قيل إن للجن عشائر وقبائل تربط بينها صلة الرحم كما هو حادث عند بني البشر.

ويروي ابن الكلبي أن ابليس أنجب خمسة منهم ثلاث قبائل تنزع إلى الشر، (الثبر، ولفيون ودامس. ومهماتهم كما تقول الخرافات خلق المصائب والكوارث والاندساس بين الناس والجرّ إلى ارتكاب الزنا وهتك الاعراض ونشر الخصومات بين الناس)(٨).

وقد زعم العرب أن حروباً دامية وقعت بين قبائل الجن وقبائل الانس من العرب. ومنها حروب بني سهم، حتى توسطت قريش بينهم وفضت النزاعات والقتال الدامي بينهم(٩).

وفي زمن متأخر كثرت الأحاديث عما يسمّى الأشباح. وهي بشكل أو بآخر ترتبط بتصورات عن مخلوقات غير مرئية، وبعضهم ربطها بالجن أما بعضهم الآخر فقد ربطها بالأموات وخاصة الذين قتلوا غدراً أو هم ابرياء قتلوا ظلماً.

وقد يكثر الحديث عن الأشباح في الأوساط الشعبية، فيربطها الناس مثلاً بمقتل شخص ما. ويصوّرون حولها قصصاً وحكايات خرافية كثيرة. كأن

يقولون إن شبح فلان خرج اليوم ليرجم بيوت الناس، أو خرج ليقتص من قاتل صاحبه.

وقد تميّز الحس العربي في القرون الوسطى باهتمامه بالأشباح كثيراً ولم يعهد أن رأينا سوى بعض القصص في أوساطنا العربية عن هذه الخرافات المتعلقة بالأشباح.

أما ما يمكن أن نراه في موروثاتنا هو الحديث عن الأرواح بشكل عام وقد تعرض لها بعض العلماء المسلمين من خلال مؤلفات كبيرة استندوا فيها إلى تفسيرات محددة للقرآن الكريم ولأحاديث محددة قالها رسول الله صلى الله عليه وسلم أمثال الشيخ ابن القيم الجوزية في كتابه الروح. وأمثال الشيخ القرطبي في كتابه التذكرة في أحوال الموتى والآخره وغيرهما من الكتب[١٠]

غير أن أحاديثهم عن عالم الروح لم يكن سوى تفسير وتفصيل لما قيل في صلب الاسلام ولم يتطرقوا إلى خرافات وأوهام يفرضونها على عقل المسلم وهي في الوقت نفسه تخالف المنظور القرآني المستند اساساً على حوار العقل والمنطق العلمي المقنع.

كيف تعرض القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة للخرافة والقوى غير المرئية؟

إذا تجاوزنا بعض المعجمات لا نجد كلمة خرافة من بين الكلمات التي تحويها، والقرآن الكريم لم يذكر كلمة خرافة.. وكذلك كلمة غول فلم ترد في القرآن الكريم. وكأن ذلك اشارة واضحة لعدم اعتراف القرآن بالخرافة أو الغول كونهما غير واقعيين ولا وجود لهما في عالم الحقيقة وعدم ذكرهما دليل على أن القرآن الكريم لم يحفل سوى بالوقائع إن كانت على مستوى الماضي أو على التصور المستقبلي المرتبط بالآخرة ويوم الحساب.

غير أن ما ورد من خرافات ومعتقدات وما انتشر بين الناس منها تناول القرآن الكريم ظاهرات الطبيعة وغيرها تناولاً علمياً يطرح القضايا الكونية بمعزل عن ارتباطها بما قاله الناس من خرافات حولها. وهذا يدل على أن آيات الكتاب الكريم تجاوزت ما (خرّف) به الناس وما اعتقدوه من معتقدات يستصغرها العقل البشري الواعي والمحلّل.

وقد تناولنا في الصفحات السابقة الخرافة التي ارتبطت بالمظاهر الكونية الكبرى ورأينا كيف تناول القرآن الحديث عن هذه الظواهر. وبيّن من

خلال آياته تكوينها والغاية من خلقها وهنا لا بد من التعرف على كيفية تناول القرآن والسنة النبوية الحديث عن الجن والقوى الغيبية ومدى علاقتها بالانسان وتأثيرها في حياته إن كان لها تأثير.

فالخرافة حسب القاموس المنجد خرافات وهي الحديث الباطل مطلقاً. وقد تحدث القرآن الكريم عن الأحاديث الباطلة في كثير من آياته خاصة في سياق الحديث عن المشركين، أو في سياق الدفاع عن كلام الله.

يقول تعالى في سورة الحج ﴿ **ذلك بأن الله يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وأن الله سميع بصير**[٦١] **ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه هو الباطل وأن الله هو العلي الكبير** ﴾[٦٢]

ويقول تعالى في سورة لقمان: ﴿ **ألم تر أن الله يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وسخر الشمس والقمر كل يجري إلى أجل مسمى وأن الله بما تعملون خبير**[٢٩] **ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه الباطل وأن الله هو العلي الكبير** ﴾[٣٠]

ففي الآيتين ٦١ ـ ٦٢ من سورة الحج وفي الآيتين ٢٩ ـ ٣٠ من سورة لقمان يتحدث الكتاب الكريم عن ظاهرتي الليل والنهار وكيف تتداخلان ببعضهما كظاهرة كونية تحتاج لإعمال الذهن والعقل. وكذلك الشمس والقمر فهما من الآيات الكونية التي تدفع العلماء للبحث العلمي الدقيق ذلك ما جاء به القرآن أما ما جاء به المشركون هو عكس ذلك تماماً فهو باطل، والباطل هنا ضد العلم. لأنه جهالة ويستند إلى خرافات ووهم وتخيّل.

ويقول تعالى في سورة النحل ﴿ **والله جعل لكم من أنفسكم أزواجاً وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة ورزقكم من الطيبات أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله هم يكفرون**[٧٢] **ويعبدون من دون الله ما لا يملك لهم رزقاً من السموات والأرض شيئاً ولا يستطيعون**[٧٣] **فلا تضربوا لله الأمثال إن الله يعلم وأنتم لا تعلمون**[٧٤] ﴾.

فمن خلال التساؤل الاستنكاري يضرب الله مثلاً للمقاربة بين ما خلق لبني البشر وبين ما يعبدون من دون الله، فالباطل الذي يؤمنون به مخالف لواقع الخلق الإلهي، لأنهم يعبدون ما لا يرزقهم، وليس له قدرة ولا استطاعة. وما يعبدون ليس إلا أصناماً أو رموزاً لما تخيلوه من خرافة وأوهام وأساطير.

وقد أوضح كتاب الله في سياق آخر عجز الجن عن فعل أي شيء له ارتباط بالإنسان. ودحض مزاعم الذين آمنوا بأنت الجن يقدرون على جلب الغيب وإخبار الناس به.

يقول تعالى في سورة سبأ ﴿ **فلما قضينا عليه الموت ما دلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته فلما خرّ تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين**[١٤] ﴾.

فأوضحت هذه الآية عجز الجن عن معرفة الغيب، ويقال إن النبي سليمان دخل المعبد وهو شيخ هرم فتوكأ على عصاه فمات، فظل ميتاً وهو متكىء على عصاه مدة طويلة من الزمن فلما أكلت دودة الأرض عصاه ونخرتها لم تعد تحمله فانكسرت وسقطت جثته على الأرض. عندها علمت الجن أن سليمان قد مات.

والذين اعتقدوا أن للجن أو الشياطين سلطاناً على بني البشر فهم واهمون. ولعلنا ونحن نطالع آيات القرآن الكريم ندرك أن الإنسان المؤمن الصادق يفضل كافة مخلوقات الله بما فيها الملائكة والجن. فليس للجن قدرة على تلبس الانسان أو السيطرة عليه.

يقول تعالى في سورة سبأ ﴿ **لقد صدق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه إلا فريقاً من المؤمنين**[٢٠] **وما كان له عليهم من سلطان إلا لنعلم من يؤمن بالآخرة ممّن هو منها في شك وربك على كل شيء حفيظ**[٢١] ﴾.

أما ما ورد على السنة الناس من حكايات عن الغول فما هو إلا افتراضات اختلقها بعض المتوهمين ونشروها في الأوساط الجاهلية والشعبية فصدقها الناس لما يدور حولها من تضخيم يغري الخيال ويستحثه على الكشف المتواصل والحديث دوماً عن الغريب من الأمور.

وقد جاء في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم (**لا عدوى ولا هامة ولا صفر ولا غول**)(١١) ولو عرف الناس موقف القرآن الكريم وحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم من الخرافة والغول لما وقعوا إلى هذا الزمن المعاصر تحت تأثير الخزعبلات والمعتقدات المدمرة. ولما ظل الخوف يسيطر على أطفال القرى والمناطق النائية.

إن رفض الإسلام اما تقوله الخرافة عن الغول يستند في ذلك على القرآن الكريم الذي لم يشر إلا لمخلوقات كالجن والملائكة، وهي ليست بذات سيطرة

على بني البشر إلا بإذن الله خالقها.

وقد أشار الشاعر أبو العلاء المعري إلى استحالة وجود الغول في بيت من الشعر قال فيه:

أقسمت أن المستحيل ثلاثة — الغول والعنقاء والخل الوفي

الخرافة وأثرها الضار على الحياة الاجتماعية:

لا شك أن الخرافة تدخل ثنايا الحياة الاجتماعية من خلال المعتقدات الاسطورية بشكل كبير. وتؤثر أحياناً كثيرة في العلاقات بين الناس. وقد فاق تأثيرها وقوتها أي تأثير وقوة، حتى خلطها الناس بقوة الدين والعقيدة. ومع التسليم بأن الله واحد ورغم ايمان البشر بالأنبياء والرسل والكتب السماوية فإنهم ولجهلهم يعتمدون في سلوكهم الاجتماعي على مجموعة من المعتقدات الخرافية التي يحاربها الدين ويرفضها.

وقد نجد كثيراً من الناس يعتمد على ما اعتقده وما توارثه من معتقدات لها ارتباطات بسلوكه وعلاقاته مع الناس. وبدا بعضهم وكأنهم يوكلون أمور دنياهم لقوة تلك المعتقدات ناسين أو غافلين عن أن ذلك إشراك بالله وبقدرته وإخلال بالايمان بوحدانية ربهم.

وتسود الخرافات والمعتقدات الخرافية الأوساط الشعبية بشكل عام رغم ما في تبعاتها من ضرر مادي ومعنوي على بني البشر.

فمنها على سبيل المثال أن بعض خصوم العريس يقومون بعقد خيط أثناء عقد الزواج كما يتم حسب اعتقادهم ربط القوى الجنسية للعريس ومن ثم ليفشل في زواجه، ويعتقدون مثلاً أن قولهم (نؤمن بإله واحد) بالمقلوب يعقد مشكلة الزواج. ونلاحظ أن بعض الجاهلين يقلبون هذه الجملة لتفرغ من محتواها وهم لا يدركون أن التصرف بكلام من هذا القبيل هو دخول في عالم الشرك والتحريف للدين والعقيدة.

وفي الخرافات أيضاً أن العروس عندما تدخل بيت عريسها يطلب منها

أن تدوس على أكواز رمانٍ توضع خصيصاً لهذه الغاية، وحبّ الرمان المتناثر في اعتقاد الأهلين حينذاك يرمز إلى تكاثر الذرية والصبيان خاصة.

وتقول الخرافة أنه على الناس عدم الدخول إلى بيت المتزوجين حديثاً صباح العرس لأن ذلك حسب اعتقادهم يسبب ضرراً يترتب عليه حرمانهما من الانجاب.

وترى الخرافة أن المرأة ذات الكعبين البارزين ليست جديرة بالزواج، فهي حسب اعتقادهم (منحوسة) وغير جالبة للرزق. وهذا ينافي الشريعة الاسلامية لأن الرزق من الله.

يقول تعالى في سورة الذاريات الآية ٢٢ **وفي السماء رزقكم وما توعدون** ويقول تعالى في سورة الطلاق الآية ٢ ـ ٣ ـ... **ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمرِهِ قد جعل الله لكل شيء قدراً.**

وتقول بعض الخرافات إن على العريس أن يدوس على رجل عروسه اثناء دخولها عش الزوجية، وهذا يعني حسب الخرافة أن الفتاة ستظل حسب التعبير الشعبي (مكسورة العين) لزوجها طائعة له. وهذه الممارسة الاعتقادية الخرافية لا تعير اهتماماً لأخلاقيات الاسلام السامية التي جعلت من المرأة إنسانةً لها كرامتها وهي مساوية للرجل في خلقها، وقد تشاءم كثيرون من الزواج بأرملة باعتبارها حسب التعبير الشعبي (مقشّرة) تقشّر زوجها أي تُميته. وتقول الخرافة إن الزواج من الأرامل يقصر الأعمار بسبب فقدان البهجة. وهذا ما يخالف المنظور الاسلامي. فالرسول صلى الله عليه وسلم أول من تزوج من النساء خديجة رضي الله عنها، وهي أرملة وكانت في الأربعين من عمرها، والرسول عليه الصلاة والسلام كان في الخامسة والعشرين من عمره. وقد أحبها كثيراً، وحزن عليها لما ماتت. وقد سمّي العام الذي توفيت فيه هي وعمه عام الحزن. فكانت خير زوجة تعينه في ضعفه، ولم تدخر جهداً في أن تكون الزوجة المثالية الصالحة له. إضافة لكونها الوحيدة التي خلّفت له البنات وابنه الذي مات وهو طفل.

وباعتبار أن الناس ـ بشكل عام ـ يحبون الأولاد دون البنات فإن الخرافة تقول: على المرأة التي أنجبت حديثاً أن تأكل السمك حتى يتكاثر نسلها كتكاثر السمك. والله سبحانه هو الذي يرزق بالبنين والبنات وليس للأكل،

والخرافة أية علاقة بذلك، يقول تعالى في سورة الحج الآية ٥ **(ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلاً)** وتقوم النساء بوضع خرزة تدعى (كبسة) على صدرها أو أي مكان في جسمها خوفاً من أن (تكبسها) النساء. فإذا ما تباطأ نمو الطفل قالوا عنه إنه مكبوس.

أما فيما يتعلق بالخرافات التي تدور حول الموت، فإنها في منظورها العام تخالف كل ما جاء في القرآن الكريم والسنّة النبوية الشريفة.

فتقول الخرافة ان بعض الحيوانات تستطيع رؤية ملاك الموت عند قدومه، ومن هذه الحيوانات الكلب والحصان. فالكلب عندما يشعر بغريزته بقدوم ملاك الموت ويراه فإنه ينبح بطريقة شاذة غريبة ويقولون انه (يجوح) فيتشاءم الناس من صوته. والحقيقة أن جواح الكلاب لا يسمع إلا في أيام البرد القارس ولعل مرد ذلك شدة البرد وعدم تحمل الكلب له.

وقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن التشاؤم والتطيّر وهما من سمات النفس الجاهلية السائدة قبل البعثة.

ويقولون: يجب إخراج مغتسل الميت قبل خروجه (النعش)، فإذا جرى العكس وخرج النعش قبل المغتسل فإن ذلك يعني أن شخصاً آخر من أهل بيت الميت سوف يموت، ويظنون أنه إذا اهتز نعش الميت فإن ذلك يعني سوف يجر من بعده أناساً غيره.

يقول تعالى في سورة نوح الآية ٤ **«إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر لو كنتم تعلمون»** ويقول تعالى في سورة الأعراف الآية ٣٤ **(ولكل أمة أجل فإذا جاء أجلهم لايستأخرون ساعة ولايستقدمون)**.

وقال تعالى في سورة يونس الآية ٤٩ **«قل لا أملك لنفسي ضراً ولا نفعاً إلا ما شاء الله لكل أمة أجل إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون»**.

والواضح من الآيات الكريمات أن ملاك الموت إذا ما حضر ليأخذ أمانته وهي الروح فإن حياة الانسان لا تؤخَّر ولا تُقدَّم.

ويقولون ان بعض النعوش تحاول الرجوع إلى الوراء بحيث يفسرون ذلك بأن الميت لا يحب في هذه الحالة مغادرة الدنيا أو مفارقة الأهل. ويذهب إلى الدفن مجبراً. ولذلك يرى حاملوه صعوبة في حمل نعشه والتقدم به سريعاً حيث دفن الميت بسرعة هو كرامة له.

وتقول بعض الخرافات إن وضع قطعة نقود من الفضة في يد الميت أو في كفنه تجلب له النور والفضاء. وهذه العادة هي من بقايا أساطير وثنية قديمة وهي مخالفة للمنظور الإسلامي، حيث وردت أحاديث كثيرة تُشير إلى أن عمل الانسان في دنياه يراه في قبره. والقبر أول منزل من منازل يوم الآخرة. وقد ظن بعضهم أنه لو وضع في يد الميت قطعة ذهبية بحيث تتناسب قيمتها مع عدد الصلوات التي قد تركها الرجل فإنه ينجو من الحساب. فهي حسب زعمهم إسقاط للصلاة عنه. ونرى في ذلك المخالفة الواضحة لجوهر العقيدة الإسلامية لأن حساب الله للإنسان يكون على قدر أعماله، فلا يُرد العذاب بسبب الذهب أو الفضة أو المال بشكل عام.

يقول تعالى في سورة الزلزال «**فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره**».

وقالت بعض الخرافات إن الأشجار التي تنمو فوق القبور هي من لحوم الأموات. وعلى ذلك فإن بعضهم يسقي النباتات المزروعة في تربة القبر أو بجانبه. وربما نسي الناس أصل هذه الممارسة وعلاقتها بالأموات من حيث هي أجداث أو عظام نخرة.

ويظن بعض الناس لا سيما في الأوساط القروية والبدوية أن الغولة (الهامة ــ وهي شيء خرافي ــ تخرج من رأس الميت القتيل وتطالب بالثأر له). فتارة تأتي على شكل (بومة) تقف على رأس شاهدة القبر. وتارة تحط على البيوت في الليل وتصيح مطالبة بقتل قاتله، ولا تتوقف عن الظهور إلا إذا أسيل دم القاتل إرضاء لروح المقتول.

وقد قال صلى الله عليه وسلم عن أبي هريرة (لا عدوى ولا صفر ولا هامة) وفي رواية اخرى لا عدوى ولا هامة ولا نوء ولا صفر. رواه الثلاثة. وفي رواية اخرى لا هامة ولا غول ولا صفر[١٢].

فالهامة خرافة والنوء خرافة. والنوء نجم يأتي بالمطر وآخر يأتي بالريح. أما صفر فهو شهر من الأشهر القمرية كان العرب يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً آخر. ويظن الناس أن الموت يكثر فيه. وقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذه الاعتقادات المرتبطة بالأوهام لأنها عقائد الجاهليين وخرافاتهم.

وقالوا إن روح الميت تزور بيته على شكل ذبابة كبيرة لا سيما عند الغروب.

وقد تتحول روح الميت إلى نحلة برية كبيرة الحجم تحوم حول أقاربه عند القيلولة لتذكرهم به. وهذا يذكرنا بمبدأ التناسخ. تناسخ الأرواح كما هو وارد في بعض الديانات الهندية.

وهذا ما يعارض المبدأ العام والواضح في العقيدة الاسلامية عن الروح. فهي تذهب لخالقها ولا أحد يدري ما يجري لها سوى الله وماأوحي لأنبيائه ورسله عنها.

وقد ورد قول بعضهم أن أرواح المؤمنين بالجابية وأرواح الكفار بحضرموت ببرهوت فقال أبو محمد بن حزم هذا من قول الرافضة. وقد علق ابن القيم على ذلك بقوله فإن أراد عبد الله ابن عمرو بالجابية التمثيل والتشبيه وأنها تجمع في مكان فسيح يشبه الجابية لسعته وطيب هوائه فهذا قريب وإن أراد نفس الجابية دون سائر الأرض فهذا لا يعلم إلا بالتوقيت ولعله مما تلقاه من أهل الكتاب(١٣).

ونستطيع أن نستخلص من خلال ما مر معنا من معتقدات خرافية أنها بمجملها لا تمت بصلة إلى العقيدة الاسلامية. وتعتمد بشكل أساسي على معتقدات لها صلة بالوثنية أو بعقائد الشعوب الغابرة المعتمدة على ما توارثه الرواة وزادوا عليه من مأثورات خرافية يدخل فيها الوهم والخيال أكثر مما يدخل فيها الواقع والمنطق والعقل.

لقد جاء الاسلام ليصحح مسار العقل العربي الذي تلبسته الجاهلية وسمات الجهل بشكل كبير حيث بنوا علاقاتهم الاجتماعية عليه فكان أن أعطاهم نتائج سيئة على كافة المستويات الدينية والاجتماعية والاقتصادية. لقد منحهم الاسلام نعمة التعقل والتدبر والقضاء على الجهل. ورفض جل تعاليمهم الاعتقادية ومن ثم ليجعلهم أمة عاقلة تعتمد على الله وعلى العمل الجاد المتواصل الذي أمرهم به ربهم الواحد القادر على كل شيء.

الخرافة وعلاقتها بالتشاؤم والتفاؤل وموقف الاسلام منهما:

لعل من أكثر الأمور تأثيرا في حياة الناس حتى اليوم التشاؤم والتفاؤل. وعلى الرغم من حالات التشاؤم التي تصيب بعض الناس بشكل مرضي فإن الحياة العامة تحفل بكثير من الأمور المرتبطة بالتشاؤم والتفاؤل. غير أنها تظل في حيّز التأثيرات الخاصة على النفس البشرية.

وللتشاؤم والتفاؤل صلة وثيقة بكثير من الخرافات والمعتقدات الخرافية لدى كافة الشعوب وجوهر الدين الاسلامي يقوم أساسا على مبدأ واقعي وآخر يقيني. فهو من جهة يحث على ربط الظواهر الكونية والإنسانية بأسباب العلم التي حثّ الله سبحانه عليها في القرآن الكريم، ومن جهة اخرى فإنه يربطها جميعها بإرادة الله سبحانه وتعالى، فهو المسيّر للكون والحافظ له، وعلى المسلم التوكل عليه في كافة أموره، لأن الإيمان الحقيقي يجعل الانسان مستسلماً لله دون سواه. ولا يعني الاستسلام لله تعطيل قدرات البشر، بل العكس صحيح، لأن المؤمن متى ربط كل شيء بقدر الله فإنه يعمر الدنيا. ويسعى فيها دون أن يضر أو يدمر أو ينشئ العداوة والبغضاء بين الناس، ويظل محافظاً على فاعليته في الحياة، فلماذا يتشاءم الانسان طالما أن الله لا يُريد لمخلوقاته سوى الخير والعدل والمحبة؟ فالتشاؤم ليس إلا عملا من وسوسة الشيطان والنفس الضعيفة اللذين يجعلان الانسان في جميع ثنايا حياته قلقاً يربط الأمور دوماً بالتوقعات السيئة.

لقد كان العرب يتطيرون من أشياء كثيرة في حياتهم. وقد جاء الاسلام ليوضح موقفه العقلي من ذلك التطير من خلال آيات الكتاب المبين وأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم.

وإذا عدنا إلى أحوال التشاؤم وأشكاله نجدها كثيرة قد لا تحصى، غير أن بعضها ما يزال يلعب دوراً ما في حياة الناس إلى اليوم.

فقد اعتاد الناس في الوسط الشعبي أن يتشاءموا من بعض الأيام ويعتبرونها نحساً. وقد نشأ هذا التشاؤم كما يقال من التقويم الروماني. ذلك أن الرومان فكروا على نحو ساذج في أن يطلقوا اسم الأيام الكريهة على تواريخ هزائمهم ابتداءً من هزيمتهم في موقعة أليتا إلى هزائمهم في كاناي

وكاراي وتدمير فاروس[١٤] وعلى سبيل المثال كان الرومان يتشاءمون من شهر أيار. ولا نعرف السبب. وقد كانت لدى المصريين القدماء أيام شؤم ونحس، وقد عرف العلماء من أوراق البردي التي تتحدث عن السحر بأنه لا ينبغي إقامة بعض المراسم السحرية في أيام محددة وتنهض الفكرة على أن قوى الشر في تلك الأيام المحددة تؤثر في هذه الطقوس وتجعلها عديمة النفع[١٥].

وقد عُرف عن العرب القدماء أنهم كانوا يؤمنون بأيام الفأل والشؤم فاليوم الذي يبدأ بسلسلة من الأفعال السيئة فهو يوم شؤم.

والعرب بشكل عام كانوا يعتقدون أنه من الأفضل أن يبدؤوا العمل في غير أيام الشؤم مثل أيام الثلاثاء والأربعاء كما كانوا يتفاءلون بأشهر معينة هي رجب، شعبان، ورمضان، ويتشاءم الناس في الوسط الشعبي العربي من بعض الأيام، فالنساء لا يقبلن أن يخطن ثوباً يوم السبت لئلا يُحرق أو يُسرق كما يعتقدون.

ويتشاءم الناس من يوم الأربعاء ويعتبرونه من أيام النحس، ويعتبرونه من أشق الأيام على المسافر ويعتقدون أن المسافر غالباً ما يفشل في سفره وفي أداء مهمته في ذلك اليوم. ويعتقدون أيضاً أن من يزور مريضاً يوم الأربعاء فإن هذا المريض لن يشفى أبداً.

وتعتقد النساء أن الغسيل يوم الجمعة يجلب المصائب على أهل البيت.

وكان للأحلام وما يزال شأن في التأثير النفسي على بني البشر سلباً وإيجاباً مما يخلق إحدى الحالتين التشاؤم والتفاؤل. فيرون في الوسط الشعبي أن من رأى سفرجلاً أو شجرة خروب في منامه فإن ذلك يعني أن مصيبة سوف تحل أو هدم وموت باعتبار أن الخروب ذات علاقة بفعل خرب بمعنى تهدم.

وكذلك فقد تشاءموا من اللون الأسود واعتقدوا أن الجان يظهرون في صورة قط أو كلب أسود أو معزى سوداء.

وتشاءموا من الغراب كونه حسب اعتقادهم رمزاً للخراب والدمار. وإذا صاح الغراب ثلاثاً فوق رأس إنسان فإن شراً سيُصيبه. وهو بشكل عام يرمز للغربة والوفاة ويعود تشاؤم العرب من الغراب إلى قصة الطوفان عندما بعث نوح الغراب يأتيه بالخبر فوجد جيفة فوقع عليها فدعا عليه بالخوف ولذلك لا يألف البيوت. يقول الجاحظ «وليس في الأرض بارح ولا نطيح ولا مقيد

ولا أعضب ولا شيء مما يتشاءمون به إلا والغراب عندهم أنكد منه»(١٦).

والبوم ليس بعيداً عن الغراب فهو ذو سمعة سيئة ويتشاءمون منه وذلك لأن مأواه الخرائب والأماكن المهجورة. وهم يقولون «مثل البوم مابزعق إلا بالخراب.

ونرى أن التشاؤم والتفاؤل يدخلان ضمن الأحاسيس الانسانية التي تعتقد بدور المعتقد في تحديد الفتاة التي يتم اختيارها كي تكون شريكة حياة. وكما هي المعتقدات الاخرى فإن المتوارثات الاجتماعية من عادات وتقاليد تلعب دوراً مهماً في خاصية التشاؤم والتفاؤل. فالمعتقد يرى النساء منهن أعتاب ومنهن نواصٍ منهن من تجلب الرزق ومنهن من تجلب النحس والفقر وقطع الأرزاق.

وقد ورد عن الجاهليين أنهم كانوا يتطيرون إذا سنحت الطير شمالاً وكذلك إذا سنحت بقية الحيوانات الصحراوية كالبقر الوحشي أو الظباء. وظلت تأثيرات التشاؤم والتفاؤل موجودة في النفس العربية لا تتخلص منها رغم أن الاسلام رفضها كلها.

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: لا طيرة، وخيرها الفأل، قيل يا رسول الله وما الفأل؟ قال: الكلمة الصالحة يسمعها أحدكم.

وفي رواية: لا طيرة ويعجبني الفأل الصالح والكلمة الحسنة. وعن بريدة قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم لا يتطير من شيء. وكان إذا بعث عاملاً سأل عن اسمه فإذا أعجبه فرح به ورؤي بشر ذلك في وجهه. وذكرت الطيرة عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال أحسنها الفأل ولا ترد مسلماً، فإذا رأى أحدكم ما يكره فليقل اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت ولا يدفع السيئات إلا أنت، ولا حول ولا قوة إلا بالله)(١٧).

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: الطيرة شرك الطيرة شرك ثلاثاً وما منا إلا... ولكن الله يذهبه بالتوكل.(١٨) ومعنى قوله إلاّ أي ما منا أحد إلا يخطر بباله شيء منها. ولكن الله يذهبه بالتوكل عليه وبذكر الدعاء الذي قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وقد قال النبي ذلك زجراً وتنفيراً عنها. أي من اعتقد أنها تجلب ضراً فقد أشرك مع الله كاعتقاد الجاهلية.

لقد جاءت تعاليم العقيدة الاسلامية لترفض كافة المعتقدات الجاهلية بما فيها المتعلقة بالتشاؤم والطيرة. وكما قلنا فإنها كانت تتحكم بتصرفات العرب وسلوكهم وتؤثر تأثيراً سيئاً على حياتهم. وتلعب دورها في معتقداتهم الدينية مما جعلهم يقعون في شرك الجاهلية، وإذا عدنا إلى كتاب الله العزيز وجدنا أن عدم التوكل على الله، والاعتقاد بأن قوى خفية تؤثر في مسار حياة الانسان يؤثران سلباً على الايمان وعلى شخصية المؤمن ذاته.

إن التشاؤم لا يغير مما قدره الله للانسان، والايمان الراسخ لدى المسلم المؤمن يجعله في حلٍ من التشاؤم ويجعله أقرب دوماً إلى التوكل على الله والاعتماد عليه في كل النوايا والسلوك والحركات.

الإسلام شريعة واضحة لا كذب فيها ولا تزييف، وهي تعلم الانسان أن يلجأ في مرضه إلى الطب بعد التوكل على ربه، وليس على المعتقد الخرافي الذي قد تدخله المحرمات. قال تعالى في سورة الطلاق الآية ٣: «**ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدراً**».

فالتوكل على الله يكفي الانسان كل شيء، وإن كل شيء لا بد أن يكون له قدر يقدره الله سبحانه وتعالى وليس الكاهن أو الساحر أو المنجم. أو بالتشاؤم وغير ذلك من الأحاسيس. وقال تعالى في سورة آل عمران الآية ١٦٠: «**فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين**».

وقد ورد في القرآن الكريم خمسون آية تجمع معاني التوكل على الله بلفظه. يتوكل، يتوكلون، المتوكلون، تتوكل، توكل، وكيل، وكيلاً، الوكيل، المتوكلين. منها مثلاً وعليه فليتوكل المتوكلون. وعلى الله فليتوكل المتوكلون. وعلى ربهم يتوكلون. ومالنا لا نتوكل على الله. فتوكل على الله. فاعبده وتوكل على الله. وتوكل على الحي. وتوكل على العزيز الرحيم، وهو على كل شيء وكيل. وعلى الله فليتوكل المؤمنون.

من خلال هذه الآيات الكثيرة نرى أن شريعة الاسلام تؤكد بشكل يقيني أن المؤمن يتوكل على الله في كل نواياه وأعماله. ولا يتشاءم ولا يلجأ إلى غير الله فهو بذلك قضى على كل ما هو أسطوري خرافي. وترك للانسان طريقاً واضحاً في الوصول إلى سلامة الفرد والمجتمع وتقدمهما بشكل علمي سليم.

هوامش الفصل الثاني

١ ـ مقدمة ابن خلدون ص٣٤٠
٢ ـ فريدرك دارلاين. الحكاية الخرافية ص٦٨ دار القلم بيروت طبعة أولى ١٩٧٣
٣ ـ صحيح البخاري مجلد ١ ـ الجزء الثاني صفحة ٢٤
٤ ـ صحيح البخاري مجلد ١ ـ الجزء الثاني صفحة ٢٦
٥ ـ صحيح البخاري مجلد ٢ ـ الجزء الرابع ص٩٣
٦ ـ شوقي عبد الحكيم. الفولكلور والأساطير العربية دار ابن خلدون.
٧ ـ هذا ماقالته التوراة في أساطيرها في سفر التكوين وهو لا يخلو من كفر.
٨ ـ الملل والنحل الشهرستاني.
٩ ـ الأزرقي ٢ ـ ١١ وما بعدهما ص٣٩٥
١٠ ـ الروح لابن القيم الجوزية والتذكرة للقرطبي
١١ ـ التاج الجامع للأصول
١٢ ـ التاج الجامع للأصول
١٣ ـ الروح: ابن القيم الجوزية ص١٤٦ مكتبة المتنبي القاهرة
١٤ ـ الكسندر هجرتي كراب علم الفلوكلور ص٣٥٠ ترجمة رشدي صالح. القاهرة ١٩٦٧ دار الكاتب العربي
١٥ ـ نمر سرحان موسوعة الفلوكلور الفلسطيني الجزء الخامس ص٨٩
١٦ ـ مجلة التراث الشعبي العراقية العدد الثاني ١٩٨٠م ص٦٤
١٧ ـ رواية أبو داوود وأحمد
١٨ ـ رواية أبو داوود والترمذي.

الفصل الثالث

الإسلام والسحر

يرتبط السحر بالخداع في أكثر وجوهه وسماته، وقد جاء في المنجد في معنى كلمة سحر خدع. وهذا عائد إلى طبيعة عمل السحر حسب المفهوم العام عند الناس.

وبشكل عام فإن علماء كثيرين اتفقوا على أن السحر علم يرتبط بعدة علوم انتشرت في أوساط الشعوب والأمم جميعها تقريباً لا سيما تلك التي سبقت النبي موسى عليه السلام. والسحر كعلم من العلوم فُقد ولم يتعامل به الناس لأن العقيدة الإسلامية وكافة الأنبياء الذين سبقوا محمد عليه الصلاة والسلام حرموا السحر بسبب كونه ضرراً لبني البشر.

وقد ركز القرآن الكريم على الحديث عن السحر والسحرة وأثرهما في ضرر الناس وما كان شائعاً لديهم حوله. ومن خلال وقائع حياة العرب بل والشعوب جميعها ندرك أن السحر أخذ دوره في حياتها بشكل كبير. وقد ربطوه بالعقائد الدينية والمعتقدات الكثيرة المتنوعة. لقد وردت كلمة السحر ومشتقاتها في القرآن الكريم ستين مرة، وهذا إن دل فإنه يدل على أن السحر يلعب دوره بشكل مؤثر في حياة الناس قديمهم وحديثهم.

يقول ابن خلدون في مقدمته في الفصل الثاني والعشرين عن السحر والطلسمات: «وهي علوم بكيفية استعدادات تقتدر النفوس البشرية بها على التأثير في عالم العناصر، إما بغير معين أو بمعين من الأمور السماوية والأول هو السحر والثاني هو الطلسمات، وهذا يعني أن السحر علم والطلسمات علم، وهما يختصان بمعرفة الكيفية التي من شأنها اقتدار النفوس البشرية على

التـأثيرات في العنـاصر وتستعين بمعين من القوى الغيبية الميتافيزيقية (تارة وهذا مـا يسمى السحـر وقد لا تستعين بقـوى غيبيـة وهذا مـا يسمى علم الطلسمات).

ويتابع قوله (ولما كانت هذه العلوم مهجورة عند الشرائع لما فيها من الضرر ولما يشترط فيها من الوجهة إلى غير الله من كوكب أو غيره كانت كتبها كالمفقودة بين الناس. فسبب فقدان كتبها هو ما جاءت به الشرائع السماوية من تحريم العمل بها بسبب استعانتها بغير الله ولما فيها من ضرر للبشر وللمجتمعات[١].

ويرى ابن خلدون وعلى ضوء معارفه بالتاريخ أن السحر والطلسمات وُجدا في كتب الأقدمين قبل نبوّة موسى عليه السلام مثل النبط والكلدانيين. وإن جميع ما تقدمه من الأنبياء لم يشرعوا الشرائع إلا جاؤوا بالأحكام، وإنما كانت كتبهم مواعظ وتوحيداً لله وتذكيراً بالجنة والنار. وكانت هذه العلوم في أهل بابل من السريان والكلدانيين وفي أهل مصر من القبط وغيرهم.

وقد أخذ الناس عن بابل أساس السحر فوسعوا فيه وتفننوا، ووضعت له الكتب التي تتحدث عن الكواكب السبعة، وكتاب طمطم الهندي في صُوَر الدرج والكواكب وغيرها، ثم ظهر بالمشرق جابر بن حيان كبير السحرة، فتصفح كتب ملة السحر واستخرج صناعته وغاص في زبدتها واستخرجها، ووضع فيها غيرها من التآليف.

ثم جاء بعض العلماء في الأندلس فلخص (المجريطي) جميع كتب السحر وهذبها وجمع طرقها في كتاب وأطلق عليه اسم «غاية الحكيم». ولم يؤلف بعده كتبٌ في هذه العلوم، ويفرق ابن خلدون بين خاصية السحر وخاصية النبوة فيرى: أن خاصية السحر غير خاصية النبوة وغير خاصية ما سخره الله من ملائكة. وهذه الخاصيات ترتبط بالنفوس ارتباطاً وثيقاً «فنفوس الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لها خاصية تستعد بها للمعرفة الربانية ومخاطبة الملائكة عليهم السلام عن الله سبحانه وتعالى، وتأثير الأنبياء مدد إلهي وخاصية ربانية. ونفوس الكهنة لها خاصية الاطلاع على المغيبات بقوى شيطانية، وهكذا كل صنف مختص بخاصية لا توجد في الآخر».

والنفوس الساحرة على مراتب ثلاث فأولها المؤثرة بالهمة فقط من غير آلة ولا معين، وهذا هو الذي تسميه الفلاسفة السحر. والثاني بمعين من مزاج

الأفلاك والعناصر أو خواص الاعداد ويسمونه الطلسمات، والثالث تأثير في القوى المتخيلة يعمد صاحب هذا التأثير إلى المتخيلة فيتصرف فيها بنوع من التصرف ويلقي فيها أنواعاً من الخيالات كالمحاكاة ويسمون ذلك عند الفلاسفة بالشعوذة.

ورياضة السحر إنما تكون بالتوجه إلى الأفلاك والكواكب والعوالم العلوية والشياطين بأنواع التعظيم والعبادة والخضوع والتذلل فهي لذلك وجهة إلى غير الله وسجود له، والوجهة لغير الله كفر فلهذا كان السحر كفراً. والكفر من مواده وأسبابه.

وقد اختلف الفقهاء في قتل الساحر، هل لكفره السابق على فعله أو لتصرفه بالافساد وما ينشأ عنه من الفساد في الأكوان.

وموقف الإسلام واضح من السحر وقد بينه القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة فشريعتنا لم تفرق بين السحر والطلمسات وجعلته كله باباً واحداً محظوراً لأن الأفعال إنما أباح لنا الشارع منها ما يهمنا في شيء منها فإن كان فيه ضرر أو نوع ضرر كالسحر الحاصل ضرره بالوقوع ويلحق به الطلمسات لأن أثرهما واحد، وكالتنجيم الذي فيه ضرر باعتقاد التأثير فتفسد العقيدة الايمانية برد الأمور إلى غير الله، فيكون حينئذ ذلك الفعل محظوراً على نسبته في الضرر وإن لم يكن مهماً علينا ولا فيه ضرر فلا أقل من تركه قربه إلى الله فإن من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه، فجعلت الشريعة باب السحر والطلسمات والشعوذة باباً واحداً لما فيها من الضرر وخصته بالحظر والتحريم.

السحر عند الشعوب القديمة:

لـو تتتبعنـا مـوضـوع السحـر من خـلال مـا وصلنـا عن شعـوب المنطقـة والشـعـوب الاخـرى لـوجدنـا أنهـا اهتمت بـه وربطتـه بمجمـوعة من التقـاليد والمعتقدات والممارسـات التعبدية الكثيرة.

وإذا رجعنـا إلى آيات الكتاب الكريم وجدناهـا قد تناولت السحـر وماكان شأنه لدى الفراعنة بشكل واضح وكبير. إلا أن ذلك لا يعني أن الشعوب الاخرى في المنطقة لم تهتم بالسحـر أو لـم تمـارسه، فجميع النصوص التي اكتشفت من خلال الآثار في حوض الفرات وفلسطين والمنـاطق الاخرى تشير بشكل واضح لممارسة السحر لديها وربطها بالمعتقدات والشعائر التعبدية.

وإذا تسـاءلنـا لمَ ركز القرآن الكريم على الحديث عن السحر؟ لوجدنـا أن الأنبيـاء عبـر دعواتهـم جـادلـوا المشـركين الذين لـم تخلُ حججهـم من عنصر السحـر. وبدا أنه كان مـادة للحجـاج والجدال بين طرفين نقيضين.

قـال تعـالى في سـورة البقرة الآيـة ١٠٢ **(واتبعوا ماتتلوا الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلّمون النـاس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنمـا نحن فتنة فلا تكفر فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجـه، ومـا هم بضـارين بـه من أحد إلا بـإذن اللـه. ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم ولقد علموا لمن اشتراه ماله في الآخرة من خلاق ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلّمون**».

اعتبر كثير من المفسرين أن الحديث عن هـاروت ومـاروت هو أول إشـارة لعلم السحر، وقـال المرحوم سليمـان الجمل عن السدي: قيل ان السحرة كثروا في ذلك الزمـان واستنبطوا أبواباً غريبة من السحر. وكـانوا يدّعون النبوة فبعث الله تعالى هذين الملكين ليعلما النـاس أبواب السحر حتى يتمكنوا من معارضة اولئك الكذابين وإظهار أمرهـم على النـاس.

وحتى تتوضح الصورة حول هـاروت ومـاروت وعلاقتهمـا بـالسحر كمـا ورد في الآية الكريمة نورد بعض التفسيرات القديمة وغيرهـا حتى نستوضح الحقيقـة من الـدس والتـوهّـم، فقـد أورد ابـو اسحق النيســابوري المعـروف بـالثعليبي في كتابه قصص الأنبيـاء ص٥١ قولـه: وأمـا قصة هـاروت ومـاروت

فقال المفسرون ان الملائكة لما رأوا ما يصعد إلى السماء من أعمال بني آدم الخبيثة وذنوبهم الكثيرة في زمن النبي إدريس عليه السلام عيروهم بذلك وأنكروا عليهم وقالوا: هؤلاء الذين جعلتهم خلفاء في الأرض واخترتهم فهم يعصونك، فقال تعالى: **لو أنزلتكم إلى الأرض وركّبت فيكم ما ركبت فيهم لفعلتم مثل ما فعلوا: قالوا سبحانك ربنا ما كان ينبغي لنا أن نعصيك. قال الله تعالى اختاروا ملكين من خياركم أهبطهما إلى الأرض. فاختاروا هاروت وماروت وكانا من أصلح الملائكة وأعبدهم**. قال الكلبي قال الله **تعالى اختاروا ثلاثة منكم فاختاروا عزا وهو هاروت وعزا بيا وهو ماروت وعزريائيل**، وإنما غير اسمهما لما اقترفا من الذنب كما غير الله اسم ابليس وكان اسمه عزازيل. فركب الله فيهم الشهوة التي ركبها في بني آدم وأهبطهم إلى الأرض وأمرهم أن يحكموا بين الناس بالحق ونهاهم عن الشرك والقتل بغير الحق والزنا وشرب الخمر.

فأما عزريائيل فإنه لما وقعت الشهوة في قلبه استقال ربه وسأله أن يرفعه إلى السماء، فأقاله ورفعه وسجد أربعين سنة ثم رفع رأسه ولم يزل بعد ذلك مطأطئاً رأسه حياء من الله تعالى. وأما الآخران فإنهما ثبتا على ذلك يقضيان بين الناس يومهما فإذا أمسيا ذكرا اسم الله تعالى الأعظم وصعدا إلى السماء قال قتادة: فما مر عليهما شهر حتى افتتنا وذلك أنه اختصم إليهما ذات يوم الزهرة وكانت من أجمل النساء، قال علي رضي الله عنه كانت من أهل فارس. وكانت ملكة في بلدها فلما رأياها أخذت بقلبيهما. فراوداها عن نفسها فأبت وانصرفت ثم عادت في اليوم التالي ففعلا مثل ذلك فقالت لا إلا أن تعبدا ما أعبد وتصليا لهذا الصنم وتقتلا النفس وتشربا الخمر فقالا لا سبيل إلى هذه الأشياء فإن الله قد نهانا عنها. فانصرفت ثم عادت في اليوم الثالث ومعها قدح من خمر وفي نفسها من الميل إليهما ما فيهما، فراوداها عن نفسها فأبت وعرضت عليهما ما قالت بالأمس فقالا الصلاة لغير الله أمر عظيم وقتل النفس عظيم وأهون الثلاثة شرب الخمر فانتشيا ووقعا بالمرأة وزنيا بها فرآهما إنسان فقتلاه. قال الربيع بن أنس وسجدا للصنم فمسخ الله الزهرة كوباً. وقال علي رضي الله عنه والسدي والكلبي إنها قالت لا تدركاني حتى تعلماني الذي تصعدان به إلى السماء. فقالا نصعد باسم الله الأعظم. فقالت فما أنتما بمدركيّ حتى تعلمانيه. قال أحدهما لصاحبه علمها. فقال إني أخاف الله فقال الآخر

فأين رحمة الله تعالى فعلماها ذلك فتكلمت به وصعدت إلى السماء فمسخها الله تعالى كوكباً. قال الاستاذ فعلى قول هؤلاء هي الزهرة بعينها.

وقال آخرون هي هذا الكوكب الأحمر واسمها بالفارسية ناهيد وبالقبطية بادخت. ويدل على صحة هذا القول ما أخبرنا به يحيى بن اسماعيل باسناده عن علي بن أبي طالب. كرم الله وجهه قال كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا رأى سهيلاً قال : « لعن الله سهيلاً إنه كان عشارا باليمن ولعن الله الزهرة فإنها فتنت الملكين هاروت وماروت » وأنكر الآخرون هذا القول وقالوا : الزهرة من الكواكب السبعة السيارة التي جعلها الله تعالى قِواما للعباد وأقسم بها فقال تعالى ﴿ **فلا أقسم بالخنس الجواري الكنس** ﴾ وإنما كانت التي فتنت هاروت وماروت امرأة تسمى زُهرة لجمالها . فلما زنت مسخها الله شهابا فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم الزهرة ذكر تلك المرأة الموافقة لهذا الاسم فلعنها . وكذلك سهيل العشار كان رجلاً فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا النجم الموافق اسمه لاسم هذا الرجل لعنه . فما ذكره المفسرون هؤلاء في هاروت وماروت من قصص وحكايات ـ كما رأينا هي أقرب إلى الخرافات منها إلى الحقيقة ، وما قاله البيضاوي هو أقرب إلى المنطق والعقل قال البيضاوي هما ملكان انزلا لتعليم السحر ابتلاء من الله للناس وتمييزاً بينه وبين المعجزة وما روي أنهما مثلا بشرين وركب فيهما الشهوة فتعرضا لامرأة يقال لها زهرة فحملتهما على المعاصي والشرك ثم صعدت إلى السماء بما تعلمت منهما فمحكي عن اليهود ولعله من رموز الأوائل وحلّه لا يخفى على ذوي البصائر ، وقيل هما رجلان سميا ملكين باعتبار صلاحهما ويؤيده قراءة الملكين بالكسر .

ومن خلال سياق الآية الكريمة ﴿ **واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان** ﴾ يتبين لنا الصلة الوثيقة بين الشياطين والسحر . ويتردد لدى كافة المفسرين قولهم إن السحرة يستعينون بالجن في أمور سحرهم كي يزداد خداعهم للناس . وقد مرّ معنا من خلال سورة الجن طبيعة عملهم ومحدودية تأثيرهم على بني البشر ، غير أن الشياطين كفروا بالله منذ أن عصى الشيطان الأول ربه ، وطبيعة الصراع بين الخير والشر هي نفسها طبيعة الصراع مع الشيطان ، فهو يحاول بكافة الوسائل إغواء الانسان وحرفه عن طريق الخير ، فإذا كان بعض السحرة يستعينون بالشيطان فإنهم يستعينون به لإنشاء

الضرر للناس ، وليس النفع والخير ، وقد كانت الآية الكريمة صريحة في فضح عمل السحرة الضار حيث يقول الله عز وجل ﴿ **فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه** ﴾ إلى آخر الآية .

ويرى بعض العلماء والباحثين أن من طبيعة السحر الاستعانة بخصائص بعض العناصر الكيماوية التي يتدرب عليها السحرة خلال تعلمهم السحر . والهدف من ورائها تركيب بعض الأدوية التي تعطى للناس للاستشفاء من بعض أمراضهم خاصة المستعصية منها ، كالعقم مثلاً .

السياق القرآني والسحر :

لا شك أن قصة موسى مع فرعون مصر من أقدم القصص التي كان للسحر نصيب وافر فيها وقد وردت هذه القصة في أكثر من موضع من القرآن الكريم . وفي السياق التاريخي الذي لا يتعارض مع النص القرآني فإن النبي موسى عليه السلام سبق النبي سليمان بمئات السنين والآية التي تحدثت عن قصة كفر الشياطين وتعليمهم لبني اسرائيل السحر جاءت لاحقة على قصة سحرة فرعون وتصدي النبي موسى عليه السلام لهم .

وبهذا المعنى فإن السحر قديم وليس هناك قول متفق عليه حول بداية نشأته ، والذي يهمنا في هذا السياق أن الفراعنة اهتموا بالسحر كثيراً وخلطه كهنتهم بالطب تارة وبالمعتقدات تارة أخرى .

وبشكل عام فإن معظم الباحثين في تاريخ المنطقة يؤكدون حقيقة وجود النبي موسى عليه السلام في ما قبل ١٢٠٠ ق الميلاد .

وتبدأ قصة السحر بين موسى وفرعون عندما ظن الأخير أن ما أتى به النبي موسى من كلام الهدي إلى وحدانية الله وما أتى به من معجزات الهية هو من عمل السحر . فجمع فرعون حاشيته وقال إن هذين لساحران عليمان ويقصد موسى وهارون . فأشار عليه خاصته أن يبعث إلى كافة السحرة في بلاده ليجتمعوا ويتصدوا لنبي الله موسى عليه السلام .

ثم إنهم اجتمعوا لدى فرعون وطلبوا منه إن غلبوا موسى أجراً فوعدهم بالأجر والقرب منه ، فلما اجتمعوا جاء موسى متكئاً على عصاه ومعه أخوه

هارون حتى أتيا المجمع وفرعون في مجلسه مع أشراف قومه فقال موسى للسحرة حين جاءهم « ويلكم لا تفتروا على الله كذباً فيسحتكم بعذاب وقد خاب من أفترى » فتناجى السحرة فيما بينهم فقال بعضهم لبعض ما هذا بقول ساحر فذلك قوله تعالى ﴿ فتنازعوا أمرهم بينهم وأسروا النجوى ﴾(٢) فقالت السحرة : لنأتينّك اليوم بسحر لم تر مثله . وقالوا بعزة فرعون أنا لنحن الغالبون ، وكانوا قد أتوا بالعصيّ والحبال ، فلما أبوا إلا الإصرار على السحر قالوا لموسى « إما أن تلقي وإما أن نكون نحن الملقين) قال لهم موسى بل ألقوا أنتم حبالكم وعصيكم فألقوا ، فإذا هي حيّات تسعى كما خيّل للحاضرين (يخيّل إليه من سحرهم أنها تسعى) ثم أوحى الله لموسى أن لا تخفْ وألقِ عصاك فألقاها فإذا هي حيّة تبتلع ما ألقوا ، (إنما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى) فلما انهزم السحرة والناس ورأوا أن عمل موسى ليس بسحر قالوا لو كان ساحراً لما غلبنا . (فألقى السحرة ساجدين ، قالوا آمنا برب العالمين رب موسى وهارون) .

فمن خلال سياق الآيات القرآنية الكريمة يتضح لنا أن السحرة استطاعوا أن يخدعوا عيون الحاضرين حتى خيّل لهم أن الحبال والعصي ثعابين . لكن السحرة أنفسهم عندما رأوا عصا موصى عليه السلام تنقلب إلى ثعبان أدركوا فوراً أنها ليست من فعل السحر ، وهم الذين خبروا السحر المزيف من الحقائق الإلهية. فلذلك سقطوا مؤمنين بالله وبما جاء به النبي موسى، وأدركوا أن ما جاء به ليس باطلاً أو سحراً ، إنما هو حقيقة ، وعرفوا ما هو الفرق بين ما صنعوه من سحر كاذب وبين ما هو حقيقي وإلهي .

إن معجزات الله خاصة به ولا يقدر على صنع مثيلها بشر أو ساحر أو مشعوذٌ وعالم . ولذلك كان فعل موسى تحديّاً إلهياً وليس سحراً يقابل سحراً . ولو كان الأمر كذلك لاستطاع السحرة أن يغلبوا موسى ، لكن الله أراد من ذلك أن يثّبت موسى في مواجهة فرعون وقومه وسحرته ، وأراد كذلك أن يبين أن ما يفعلونه هو باطل وخداع وزيف وأن معجزة الله ليست كسحر البشر ، ولذلك أيضاً كان جوابهم على ما حصل (أمنا برب موسى) لأن ما رأوه هو من صنع الله العلي القدير .

لقد صرف السحرة أعين الناس عن إدراك حقيقة ما فعلوه من التمويه والتخييل ، وهذا هو السحر . وهذا هو الفرق بين السحر ومعجزة الأنبياء التي

هي فعل الله ، وذلك لأن السحر قلب الأعين وصرفها عن إدراك ذلك الشيء ، والمعجزة قلب نفس الشيء عن حقيقته كقلب عصا موسى عليه السلام حيةً تسعى . وقد علق ابن الكلبي على قوله تعالى ﴿ **قال نعم وإنكم لمن المقربين** ﴾ بقوله (والآية تدل على أن كل الخلق كانوا عالمين بأن فرعون كان عبداً ذليلاً مهيناً عاجزاً . وإلاّ لما احتاج إلى الاستعانة بالسحرة ، وتدل أيضاً على أن السحرة ما كانوا قادرين على قلب الأعيان وإلا لما احتاجوا إلى طلب الأجر والمال من فرعون لأنهم لو قدروا على قلب الأعيان لقلبوا التراب ذهباً .. ولنقلوا ملك فرعون لأنفسهم ولجعلوا أنفسهم ملوك العالم ، أما فيما ورد عن قصة النبي سليمان وكفر الشياطين واستعانة اليهود بها على عمل السحر فقد أورد المفسرون ومنهم السدي أن الشياطين كانت تسترق السمع . فيسمعون كلام الملائكة فيما يكون في الأرض من موت وغيره فيأتون الكهنة ويخلطون ما يسمعون في كل كلمة سبعين كذبة ، ويخبرونهم بها ، فاكتتب الناس ذلك وفشا في بني اسرائيل أن الجن تعلم الغيب ، فبعث سليمان عليه السلام في الناس وجمع تلك الكتب فجعلها في صندوق ودفنها تحت كرسيّه وقال لا أسمع أن أحداً يقول إن الشياطين تعلم الغيب إلا ضربت عنقه ، فلما مات سليمان ، وذهب العلماء الذين كانوا يعرفون أمر سليمان ودفنه الكتب ، وخلف من بعدهم خلف تمثل لهم الشيطان على صورة انسان فأتى نفراً من بني اسرائيل فقال هل أدلكم على كنز لا تأكلونه أبداً ، قالوا نعم قال فاحفروا تحت الكرسي وذهب معهم فأراهم المكان وأقام في ناحية فقالوا أدنُ فقال لا ولكنني ههنا فإن لم تجدوه فاقتلوني ، وذلك أنه لم يكن أحد من الشياطين يدنو من الكرسي إلا احترق فحفروا وأخرجوا تلك الكتب فقال الشيطان . إن سليمان كان يضبط الجن والإنس والشياطين والطيور ويحكمُ فيهم بهذا ثم طار الشيطان ، وفشا بين الناس أن سليمان كان ساحراً وأخذ بنو اسرائيل تلك الكتب فلذلك كان أكثر ما يوجد من السحر عند اليهود فلما جاء سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم برأ سليمان من ذلك وأنزل الله تكذيباً لمن زعم ذلك قوله ﴿**واتبعوا ما تتلوا الشياطين**...﴾ إلى آخر الآية.

وقد ورد في التوراة في سفر صموئيل الأوّل الاصحاح ٢٨ ما يدل على أن اليهود كانوا يستعينون بالسحرة لاعتقادهم أنهم يستعينون بالجن ، تقول التوراة : (فقال شاؤول لعبيده فتشوا لي على امرأة صاحبة جان فاذهب إليها

واسألها فقال له عبيده هو ذات امرأة صاحبة جان في عين دور ، فتنكر شاول ولبس ثياباً أخرى وذهب هو ورجلان معهوجاؤوا إلى المرأة ليلاً وقال اعرفي لي بالجان وأصعدي لي من أقول لك ، فقالت له المرأة هو ذات أنت تعلم ما فعل شاؤول كيف قطع أصحاب الجان والتوابع من الأرض ، فلماذا تضع شركاً لنفسي لتميتها، فحلف لها شاؤول بالرب قائلاً حي هو الرب إنه لا يلحقك إثم في هذا الأمر فقالت المرأة من أصعدلك .. فقال أصعدي لي صموئيل . فلما رأت المرأة صموئيل صرخت بصوت عظيم وكلمت المرأة شاؤول قائلة لماذا خدعتني وأنت شاؤول . فقال لها الملك لا تخافي فماذا رأيت فقالت المرأة لشاؤول رأيت آلهة يصعدون من الأرض فقال لها ما هي صورته فقالت رجل شيخ صاعد وهو مغطى بجبة فعلم شاؤول أنه صموئيل فخر على وجهه إلى الأرض وسجد ....)(٤)

وشاؤول سبق داود وسليمان في حكم اليهود ، وقد حكم النبي داود على أنقاض ملك شاول ، فإذا قارنا بين ما ورد في قصة النبي سليمان وجمعه لكتب السحر وبين قصة شاؤول وانتشار السحرة أدركنا أن اليهود فعلاً كانوا يمارسون السحر بكثرة ، ويكفرون بما جاء به أنبياؤهم .

وقد ظل اليهود أكثر من اهتم بالسحر والاعتماد على الاستعانة بالجن كما حدثت به أخبارهم ، وطبيعي أن الاعتماد على السحر والاتكال على قوى مخلوقة محدودة هو شرك بالله وانتقاص لقدرته . وليس عجيباً أن نرى العقيدة اليهودية كما صنعها أحبار اليهود تفتقد لكثير من الارتباط بالله وما بَعَث المرسلين من أجله .

الجاهليون والسحر

عرف العرب في العهد الجاهلي السحر ، وقد أشارت أكثر المصادر التراثية أن السحر دخل الجزيرة العربية عن طريق الشعوب المجاورة كالفرس وعن طريق بعض اليهود الذين ساكنوا العرب في المدينة وفي أنحاء أخرى من اليمن والشام ، وقد عرف الجاهليون العرافة المرتبطة بالتنبؤ وادعاء معرفة الغيب غير أنه لم يعرف من اشتهر من بينهم بالسحر .

ولا يخفى علينا ما لليهود من تأثير وأثر في الحياة الاجتماعية الجاهلية ، فقد عاشوا في المدينة المنورة (يثرب) ولا شك أنهم عرفوا فنون السحر والخداع مما توارثوه عن آبائهم وأجدادهم واختلاط العرب بهم كان اختلاطاً واسعاً لا سيما في التجارة . فالأوس والخزرج عاشوا في يثرب سوية مع اليهود مئات السنين إضافة لما كان يجري بينهم من حوارات حول العقائد وبعث النبي الجديد .

كل ذلك لا شك قد ساعد على معرفة العرب ما لدى اليهود من سحر وعرافة ، خاصة إذا أدركنا أن كثيراً من السحرة والكهنة خلطوا بين الطب والسحر ، مما جعل الناس يرحلون إليهم طلباً للمداواة وقراءة الطالع وما شابه ذلك .

ويُذكر أن العرب فزعوا إلى الكهان لأجل تعرف الحوادث وتنافروا إليهم في الخصومات ليعرفّوهم بالحق فيها من إدراك غيبهم حسب ما يزعمون ، وقد اشتهر من العرافين شق بن أنمار بن نزار وسطيح بن مازن بن غسان ويقال إنه كان يدرج كما يدرج الثوب ولا عظم فيه إلا الجمجمة وقد كان في العرب كثيرون من هؤلاء العرافين ، مثل عراف اليمامة رباح عجلة ، وعراف نجد الأبلق الاسدي .

وقد ارتبط بعض العرافين بالعقائد الوثنية المرتبطة بالأصنام والأوثان التي انتشرت قبيل الاسلام في غالبية مناطق الجزيرة العربية خاصة في مكة ، ولجوء عبد المطلب جد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى العرافين مشهورة حين أراد أن يفي بنذره بشأن ولده عبد الله ومن ثم ذبحه لمئة جزور فداء للغلام .

وقد لجأت القبائل إلى العرافين والعرافات أثناء النّية لشن الحروب كي يعرفوا مدى انتصارهم أو انكسارهم . وقد ظلت هذه العادة في المخزون النفسي العربي تفعل فعلها لدى كثير من الملوك والخلفاء وعامة الناس ، ولعلنا نذكر قصة رد المعتصم الخليفة العباسي على اقتحام الروم لإحدى البلدان العربية على تخوم الدولة وكيف أن المنجمين قالوا له لن تغزو وتنتصر قبل نهاية الصيف ، فخالفهم وغزا الروم وانتصر عليهم في وقعة عمورية المشهورة والتي قال فيها الشاعر أبو تمام قصيدته المشهورة والتي مطلعها :

السيف أصدق أنباء من الكتب ... في حده الحد بين الجد واللعب

وقد تحدث القرآن الكريم كثيراً عن موقف المشركين من كلام الله ومن دعوة النبي صلى الله عليه وسلم ومن خلال عدائهم اتهموا الرسول عليه الصلاة والسلام بأنه ساحر وأن ما نزل عليه من قرآن ما هو إلا سحر ، ويريد الرسول الأعظم بهذه العقيدة أن يسحر الناس ويفرق بين الأهل والأخوة .

وعندما أسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم قريشاً شيئاً من القرآن بهتوا لفصاحته الفريدة فجلبوا عباقرتهم من الفصحاء ليعرفوا ماهية هذا الكلام ، وكان على رأسهم الوليد بن المغيرة وكان من أفصح العرب ، فبُهت عند سماعه القرآن ، لكن طغيان الشرك على رأسه جعله يتهرب من الحق ولم يجد شيئاً يصف به القرآن سوى السحر .

وقد قال الله تعالى بحقه في سورة المدثر ١٦ ـ ٢٥ ﴿ **كلا إنه كان لآياتنا عنيداً ، سأرهقه صعودا إنه فكر وقدّر ، فقتل كيف قدر ، ثم قتل كيف قدر ، ثم نظر ثم عبس وبسر ، ثم أدبر واستكبر فقال إنْ هذا إلا سحر يؤثر ، إن هذا إلا قول البشر** ﴾ .

وكما قلنا فقد اعتبر المشركون القرآن الكريم سحراً لجهلهم بهذا الأسلوب اللغوي ، ولجهلهم بتلك المعجزات الإلهية لا سيما في الخلق الكوني والبشري . وقد عانى الأنبياء من موقف أقوامهم بسبب دعوتهم للتوحيد وما كان من تلك الأقوام إلا أن يتهموا أنبياء الله بالسحرة والسحر يقول تعالى في سورة الذاريات الآية ٥٢ : ﴿ **كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون** ﴾ .

إن موقف الجاهليين من القرآن والدعوة قرن العداء بالظن أو التلفيق واتهام العقيدة بالسحر وعندما رأوا أن القرآن يقلب النفوس والأرواح من عالم إلى عالم اتهموا الدين بأنه دين سحر يغير الناس ويقلبهم وذلك لاعتقادهم المتأصل أن السحر يغيّر النفوس ويفعل ما لا يألفه البشر كونه عملاً يخلط بين إرادة الساحر والقوى غير المرئية كالجن .

السحر والاستعانة بالجن والشيطان

ورد معنا في صفحات سابقة أن الاستعانة بالجن والشياطين والقوى المزعومة من طبيعة السحر والسحرة ، وليس من طبيعة المؤمنين المستعينين بالله . وقد أوضحت الآية الكريمة المتعلقة بالحديث عن النبي سليمان عليه السلام وكفر الشياطين أن الجن وخاصة إبليس واتباعه يوهمون بعض الناس ويوقعونهم في حبائل الوهم والتوهم .

وقد وقف الاسلام موقفاً رافضاً لمن يستعين بغير الله واعتبر الاستعانة بغيره كفراً وشركاً لأن الله سبحانه هو الذي خلق فسوّى وهو الذي يدبر شؤون خلقه في عيشهم ومعيشتهم وطبيعي أن الساحر الذي يستعين بالجن أو الشياطين هو بعيد عن العقيدة وعن قيمها ومثلها ذلك لأنه يعمل بإيحاء من كذب الشياطين وإيهامهم ، ويزداد الأمر سوءاً إذا عمل الساحر على التفريق بين الناس ودس البغضاء بينهم أو استخدم دواء محرّماً أو مضراً ليكمل إيهامه بأنه يفعل المعجزات .

ومن الطبيعي أن المسلم المؤمن لا يستطيع الشيطان أو أية قوة أخرى أن تلحق الضرر به دون أن يكون الله سبحانه قد أراد له . والإيمان بالله نقيض الاستعانة بالجن والاعتماد على قوتهم .

ولما كانت قوى الجن مخلوقة من نار كما صرح بذلك القرآن الكريم فقد قيل إن لها قدرة على التغيّر والتبدل من هيئة لهيئة ، لكن القرآن الكريم يشير بوضوح أن ليس للشياطين أو الجن سلطان على عباد الله ، وتأثيرها يكون على ضعاف الإيمان والمنافقين أو المشركين ولم يعرف الاسلام والمسلمون مؤمناً

بالله ورسوله حق الإيمان قد عمل بالسحر وقد أوردت كافة المصادر الدينية المختلفة أن اليهود قد اختصوا في ذلك لما في عقائد اليهودية من وثنية وإشراك واعتماد على غير الله ، وكذلك كثيرون من الذين ينتمون إلى عقائد غير عقيدة الاسلام .

ونتيجة لجهل الناس فقد كثرت آثار صنعة السحر لدى اليهود على الناس وما زالت آثارها تنتشر في كثير من فئات المجتمع إلى يومنا هذا ، ولو أن الايمان دخل قلوب الناس بشكل صحيح لما لجأوا إلى السحرة والمنجمين ، لأن اللجوء إليهم والاستعانة بهم كفر بقوة الله وبملكه وتسييره للكون ضمن نظام رباني دقيق .

ولو يدركون أن الاستعانة بغير الله شرك لابتعدوا عن اللجوء للسحر والسحرة ونبذوا كافة طرقهم الخادعة ومداواتهم الموهمة والمضرة .

يقول تعالى في كتابه العزيز في سورة طه آية ٦٩ ﴿ **ولا يفلح الساحر حيث أتى** ﴾ أما كيف يستعين الساحر بالشياطين والجن ؟

فإنه ورد في بعض الكتب المتداولة في الأوساط الشعبية ما يؤكد وجود طرق كثيرة ـ حسب زعمهم في جلب الجن واستحضارهم وتسخيرهم لخدمة الساحر ، ومن تلك الكتب ما نسب إلى الفيلسوف والطبيب الاسلامي ابن سينا عن كتابه المسمّى (مجموعة ابن سينا الكبرى في العلوم الروحانية فهذا الكتاب كما يزعمون يتحدث عن الطب السحري والأبواب السحرية والعزائم والطوالع والبروج والطبائع والطلاسم)[٦]

ومن هذه الكتب كتاب اسمه (مفاتيح الكنوز في حل الطلاسم والرموز) وهو كما يزعمون من تأليف الشيخ محمود أبي المواهب الخلوتي الحنفي ، ويشتمل على فوائد وأبواب للجلب والتهييج وإرسالات الهواتف والمنازل وغير ذلك .[٧]

ومن هذه الكتب وأغربها كتاب يدعى سحر بارنوخ . السر الأكبر للحكيم بارنوخ الساحر السوداني ، وهذا الكتاب يعتمد بكليته على الاتصال المزعوم بالجن والأبالسة وجعلهم في خدمة الساحر لتنفيذ أغراضه .[٨]

وقد اشتهر من بين هذه الكتب كتاب شمس المعارف وهو كبير الحجم . غير أن الغالب عليه استخدام الآيات القرآنية وأسماء الله الحسنى في فعل الأعمال السحرية الخيّرة حسب ما هو موجود في الكتاب .[٩]

وسنرى بعض الأمثلة الواردة في هذه الكتب لندرك لماذا يقف الاسلام ضد السحر والسحرة ولماذا حلل قتل الساحر ، ولماذا حرم التعامل مع هذه الاستعانات بغير الله .

ففي كتاب سحر بارنوخ وكتاب مفاتيح الكنور نجد أن المؤلفين يربطان بين أسماء ومصطلحات دينية وآيات قرآنية من جهة ، وبين تعابير أخرى من جهة ثانية يُفترض أنها أسماء جن و أبالسة وملوك وخدم من عالم المخفيات أو ما وراء العين .

فعلى سبيل المثال نرى في كتاب مفاتيح الكنوز أبواباً لمختلف الطرق السحرية الضارة والنافعة مثل باب الحرق ، ويقصد به حرق قلب فلان من الناس ، وباب في دعوة إحراق الجن وباب جلب زبون إلى الدكان ، وفي الكتاب الآخر يوجد على سبيل المثال ، باب ضرب المندل ، ويخبر حسب زعمهم عن جميع ما يريده المرء ، وباب إحضار الغائب وحرق قلبه ، وباب للمتعوّمة عن الحمل ، وباب للطلاق والفراق والشتات .

وكثيرة هي الأبواب التي لا ترى فيها سوى ضرر الناس وإلحاق الأذى بهم .

أما عن الطرق المزعومة لجلب الجن والشياطين وإعانتهم الساحر على عمله فقد ورد الكثير منها في الكتابين المذكورين آنفاً .

منها مثلاً : (أجب يا شفيط ، وتوكل لكذا وكذا ، وبدائرة الكف ، وأنت وأعوانك أو جنودك وأباليس رهطك ، وتوكلوا بنكاح ٢٥٢ في صفي وحبلي ، بطشاقش مهراقش بقمهوش وكشار وكشلخ الاركباط فيم أمرتكم ووكلتكم عليه ، فأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم إليّ كفيلاً ألوحاً ٢ الساعة ٢) .

فإذا نظرنا إلى هذا النص ، لوجدنا أن الكلام يخلط ما هو مفهوم مع ما هو غير مفهوم وترد أسماء يوحي بها الكتاب على أنها أسماء للجن والأبالسة ، وإن دل على شيء فإنه يدل على أن الساحر يلجأ للاستعانة بالشياطين والجن ، وهذا ما يرفضه الاسلام لأنه استعانة بغير الله .

ويظهر أن السحرة يقولون أشياء لا تفهم ، فيها ما يسمى العزائم والاقسام ولا أحد يدري ماذا يعنون بها .

ويلجأ السحرة الى حرق أنواع من البخور ، ويعيشون جواً خاصاً من الإيهام بالخوف والخشية والتوقعات المستحيلة .

إضافة لذلك فإن السحرة يلجأون إلى قتل بعض الحشرات والحيوانات واستخدامها في سحرهم وهذا مما حرمته الشريعة الاسلامية لا سيما إذا استخدمها الساحر في صنع الأدوية لبعض الناس وقد ورد في التاج الجامع للأصول أن طبيباً سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ضفدع يجعلها في دواء فنهاه النبي عن قتلها .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن الدواء الخبيث وقال لا تتداووا بالحرام .(٢٠)

وإذا حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم قتل الضفدع فإنه حرم التداوي بها لأن هذا التداوي مرتبط بقتلها ، وقد نهى عنه كما تقدم لأنه نجس أو مستقذر وإن ما نهى عنه إما لحرمته كالانسان والحيوان أو لنجاسته واستقذاره كالهدهد والضفدع ، وخبثه من نجاسته لأنه حيوان أو كالحيوان الذي لا يؤكل أو كفضلة الحيوان ، وإنما نهى عن الدواء الخبيث لأن الغرض من الدواء إبعاد المرض وجلب الشفاء ، وهذه ليست صالحة لذلك بل فيها الضرر وعلى فاعلها الاثم لمخالفته أمر الرسول صلى الله عليه وسلم .

وقد نفر الرسول صلى الله عليه وسلم من الترياق لأنه مصنوع من لحوم الأفاعي والخمر ، كذلك نفر من التميمة لأن فيها كلمات لا تجوز وهي من عمل الجاهلية .

ويحلل السحرة قتل الحرباء وحرقها وذلك من أجل فعل السحر . كما يلجأ بعض السحرة لاستخدام السبحة ويزعمون أن العد بحباتها حسب طرائقهم يمكنهم من كشف الغيب . وكما يزعمون أنهم يقرأون الكف ويضربون بالرمل . ويدرسون ما يتعلق بالأبراج ويربطون ذلك بمصائر الناس والأخطر من ذلك كله أن السحرة يزعمون أنهم يكشفون الغيب ، ويتنبأ واحدهم بما سيحصل للناس وهذا مخالف للشريعة والعقيدة مخالفة كبيرة . حيث لا يعلم الغيب إلا الله ، وقد حجب الله المستقبل حتى عن انبيائه إلا لمعجزة محددة يراد بها تثبيت النبوة وإقناع الناس بها .

ويدعي بعض السحرة للمرأة مثلاً أنها ستلد بنتاً أو ولداً ، وكم وقعت مشاكل اجتماعية بسبب لجوء النساء إلى هؤلاء السحرة الذين يريدون كسب المال من الناس .

لقد ذم القرآن السحر ووضّح ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد

ورد في كتاب التاج الجامع للأصول عن جندب رضي الله عنه عن الرسول صلى الله عليه وسلم قال (حد الساحر ضربه بالسيف) رواه الترمذي والحاكم .

وقال مالك إنه كافر بالسحر فيقتل ولا يستتاب فإن توبته لا تقبل .

واعتبر رسول الله صلى الله عليه وسلم السحر من الموبقات (المهلكات) يقول : اجتنبوا السبع الموبقات ، قالوا وما هي يا رسول الله قال : الشرك بالله والسحر ، وقتل النفس التي حرم الله وأكل مال اليتيم ، والتولي يوم الزحف ، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات)[١٢]

وجاء في مقدمة ابن خلدون قوله : (وذكر مسلمة في كتاب الغاية له في مثل ذلك أن آدمياً إذا جعل في دن مملوء بدهن السمسم ومكث فيها أربعين يُغذى بالتين والجوز حتى يذهب لحمه ولا يبقى منه إلا العروق وشؤون رأسه ، فيخرج من ذلك الدهن ، فحين يجف عليه الهواء يجيب عن كل شيء يسأل عنه من عواقب الأمور الخاصة والعامة ، وهذا فعل من مناكير أفعال السحرة)[١٣] .

وتقول أخبار العامة أن في المغرب العربي مغارة (كهفاً) نقش على جدرانها جميع أسرار علوم السحر والطلسمات ، ويقولون إن من يدخلها عليه أن يجلب معه مؤونة عام كامل من الأكل . لأنها حسب زعمهم تفتح مرة واحدة كل سنة ، فيكون طالب السحر وعلمه قد تعلم وخط ما قرأه على ورق يجلبه معه لهذه الغاية ، واشتهر بين الناس أن السحرة المغاربة هم من أكثر السحرة حفظاً لعلوم السحر ويوردون عنهم قصصاً تثير العجب والدهشة لدى سامعها لما فيها من غرائب لا تتوافق مع المنطق والعقل .

والحديث عن هذه المغارة يشبه إلى حد كبير الأحاديث التي تحكى في قصص ألف ليلة وليلة عن كهوف ومغاور يسكنها الجن وفيها كنوز من الذهب والفضة تعجز العين عن وصفها ، وقد اشتهر الهنود أيضاً بأنهم من عظماء السحرة ، وتصور حكاياتهم الخيالية والأسطورية بطولات ومغامرات يقوم بها بشر من خلال الاستعانة بمارد من الجن كان مسجوناً في قمقم ثم أطلق ليكون خادماً لمن أخرجه ويلعب الخيال الشعبي دوراً كبيراً في صنع حكايات عن الجن مثلما نلاحظ في قصة سيف بن ذي يزن وحمزة العرب وحكايات الحمّامات الشعبية وما شابه ذلك ، ويروون أيضاً أن بعض الجن يحملون الإنسان من صاحبهم إلى بلاد عجيبة غريبة في لحظات من الوقت . وكم كثر

مثل ذلك في الحكايات الشعبية التي تُروى شفاهية على ألسنة كبار السن والعجائز .

ويزعم بعض السحرة أنهم قادرون على جلب أي انسان أمامهم لو كان بعيداً عنهم مسافات طويلة تحتاج لسفر ، ويلجأون إلى هذا الادعاء خاصة في خداع بعض المحبين الذين يطمعون أن يروا أحباءهم المحرومين من رؤيتهم بسبب ظروف اجتماعية أو ظروف سفر وما شابه ذلك .

ويشبه عملهم هذا ما يقال عن تحضير أرواح الموتى فيزعم بعضهم أن بعض الناس العارفين بعلوم غيبية يستطيعون تحضير أرواح أناس ماتوا من زمن بعيد وقد ورد معنا قصة شاؤول ملك اليهود مع المرأة الساحرة التي استحضرت روح النبي صموئيل ، وقد ورد ذلك في التوراة وأشرنا إليه سابقاً .

وللمزيد من التفاصيل عن عالم الأرواح فيما ورد عن الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم موجود في كتاب الروح لابن القيم الجوزية وكتاب التذكرة للإمام القرطبي ، وكلاهما من العلماء المسلمين والموسوعيين والمطلّعين ، ورغم ذلك لم يرد عنهما ما يشير إلى قيام شخص باستحضار أرواح الموتى والحديث معها . ولو كان تحضير الأرواح أمراً صحيحاً لكان أولى برسول الله صلى الله عليه وسلم أن يستحضر أرواح قتلى قريش بعد معركة بدر رغم أن الصحابة سألوه وهل يسمع الموتى فأجابهم إنهم يسمعون غير أن سماعهم شيء واستحضار أرواحهم شيء آخر لأن استحضار أرواح الموتى يستدعي الحوار بين المستدعي والمستدعى .. والرسول عليه الصلاة والسلام لم يحاورهم إنما ألقى عليهم كلاماً سمعوه بأرواحهم لكنهم لم يردوا عليه أو يحاوروه .

الرقى والتعاويذ
وعلاقتها بالسحر وموقف الإسلام منها:

جاء في القاموس المنجد في مادة رقى :

رقى رقياً ورقيّاً ورقية ، وعليه استعمل الرقية نفعاً له أو إضراراً به ، استرقى طلب منه أن يصنع له رقية ، والرقية جمع رقى وهي أن يستعان للحصول على أمر بقوى تفوق القوى الطبيعية في زعمهم أو وهمهم .

أما عاذ ومنها التعوذية وجمعها التعاويذ ، فهي تعني اللجوء لفلان والاعتصام به والتعويذه ، هي ما يكتب ويعلق على الانسان لتقيه من الجنون والعين .

وقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان قد نهى عن الرقى لأن الجاهليين كانوا يرقون بما فيه شرك وبغير لغة العرب ، وربما كان فيه سحر أو كفر كعادتهم في الجاهلية ، فلما علم رسول الله صلى الله علية وسلم أن المسلمين لم يرقوا إلا بما هو ضمن الشرع أجاز لهم الرقية بقوله عليه الصلاة والسلام « من استطاع منكم أن ينفع أخاه فليفعل »(١٤) .

والرقى كما ورد عن الرسول عليه الصلاة والسلام هي أدعية للمريض وقراءة بعض السور من القرآن الكريم ، ولا سيما الآيات أو السور التي سُمع الرسول صلى الله عليه وسلم يقولها ، وقد ورد في التاج الجامع للأصول عن عوف بن مالك قال : كنا نرقي في الجاهلية فقلنا يا رسول الله كيف ترى في ذلك فقال : اعرضوا علي رقاكم لا بأس بالرقى ما لم يكن فيه شرك) رواه مسلم وأبو داود .

ومن الرقى التي تعلمها المسلمون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم

قوله (اللهم رب الناس ، مذهب الباس اشف أنت الشافي ، لا شافي إلا أنت شفاء لا يغادر سقماً) رواه الأربعة .(١٥)

وهذا يعني أن الرقى لم يرخص بها رسول الله صلى عليه وسلم إلا بعد التحقق من كلماتها إن كان فيها ما يخالف الشريعة أم لا . ثم علم المسلمين كيف يرقون بالدعاء والمعوذات ، فالرقى استعانة بالدعاء لله تعالى . وقد أدرك نبينا عليه الصلاة والسلام أن الاستعانة بالله هي وحدها المساعِدة على ذهاب المرض بعد الأخذ بالأسباب الطبية لكنه أيضاً رفضها إذ ظن بعض الناس أنها تنجي من الموت ، روي عن عائشة رضي الله عنها قالت : **(كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا اشتكى منا إنسان مسحه بيمينه ثم قال : اللهم اذهب الباس إلى آخر الحديث فلما مرض وثقل أخذت بيده لأصنع به ما كان يصنع فانتزع يده من يدي ثم قال اللهم اغفر لي واجعلني مع الرفيق الأعلى فذهبت أنظر فإذا هو قد قضى)**. (رواه مسلم)(١٦) .

نستخلص مما تقدم أن الرقى ليست سحراً ولا تمت له بأية صلة ، فهما أصلاً مختلفان في الوسائل والنتائج والغايات والتوجهات وهذا في المفهوم الاسلامي الذي يعلمنا إياه رسول الله صلى الله عليه وسلم .

أما رفض رسول الله (ﷺ) للرقى في بداية عهد المسلمين بها هو رفض مشروعٌ لأنها قديمة في الجاهلية بل هي من أقدم الآثار التي خلفها الإنسان ولها ارتباطات بالسحر لا سيما لدى الشعوب الوثنية القديمة .

والرقية عادة التجاء بالأقوى. وتكون عادةً مجموعة من الكلمات والجمل غير المفهومة حتى من قبل الذين يكتبونها أو يلقونها شفاهية . وغالباً ما كانت في الجاهلية مسجوعة ، وقد تكون شراباً ذروراً ناعماً مستخرجاً من أصول نباتية أو حيوانية ، وقد يصحب هذا الشراب طقوس معينة ، تقرأ عليها بعض التعاويذ . وحسب ما ورد في أساطير الشعوب ومعتقداتها فإن الرقى تعتمد غالباً على قوة الألفاظ ذاتها المستخدمة في التعاويذ ، إيماناً بسحر الكلمة وقوتها وهذا ما جعلها تنطوي تحت عالم السحر في تلك الأزمان ، لأن فعالية الكلمة وقوتها كانت أساس السحر ، وسلاحَ الانسان حيث كان بيتُ الشعر ينزل القمر من السماء ، ويفتح باب الكهف بكلمة ، ويقتل الساحر اسمه بمجرد معرفة هذا الاسم وبالطبع هذا حسب مزاعم الأقدمين أما التميمة **فهي** عوذة تعلق على الإنسان ، وفي الحديث الشريف (**من علق تميمة فلا اتمّ الله**

عليه) وقيل التميمة خرزة ، أما الحجاب ففي اللغة هو الستر ، فالرقية والحجاب والتميمة كلها بمعنى واحد وتستخدم لنفس الأغراض والغايات والفرق بينهما ليس واضحاً .

لقد عرف عرب الجاهلية تلك الرقى والتعاويذ ، فكانوا يعلقون بعض الأحجار الكريمة على صدور الأطفال أو الكبار لوقايتهم من الأخطار أو الأمراض بصفة عامة . وكان كثيرون منهم يعلقون التمائم على الصدور لوقايتهم من السحر خاصة .

والرقى والتعاويذ رغم ما داخلها من عناصر دينية وأخرى أسطورية ، فهي موجودة في كل زمان ومكان ، ولا يزال لها أشياع إلى اليوم في مختلف البيئات على الرغم من غلبة العلوم المادية الوضعية على ما هو روحاني أو غيبي .

ويزعمون على سبيل المثال في الأوساط الشعبية أن هناك رقية مؤداها أن يأخذ الشاب العاشق رأس غراب ويفرغ من المخ ، ويُجعل موضعه شيئاً من تراب المكان الذي تجلس فيه الفتاة التي يريد وشيئاً قليلاً من براز الحمام . ويجعل في ذلك سبع شعيرات ويدفنه في موضع ندي فإذا نبتت حبات الشعير طول أربع أصابع ، أخذ منه ثم دلك ومسح به على وجهه وذراعيه ، ثم استقبل به تلك الفتاة ولم يكلمها فإنها تسعى في إثره ولا تطيق الصبر على بعده عنها ، ففي هذه الرقية يرتبط نمو الحب بنمو حبات الشعير .

وطالما أن الرسول صلى الله عليه وسلم نهى عن المداواة بقتل الضفدع لأنه يصبح من النجاسة فكذلك ينطبق تحريمه على الغراب لأن فيه قتلاً للغراب ، ولا ننسى أن الميتة نجسة فلا يجوز أن يستعمل الخبيث في الطب أو في الرقى والتعاويذ .

واستناداً على ما جاء في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريعة يقف الاسلام موقفاً حازماً تجاه السحر والسحرة وتجاه التعاويذ التي كانت سائدة في أوساط الجاهليين قبل البعثة وهذا الموقف المضاد يأتي بسبب كون السحر كفراً بالله وبقوته ، فهو يستعين بالجن والشياطين ، ويستخدم في الطب المحرمات ، ويضر بالعلاقات الاجتماعية ضرراً فاحشاً ولذلك كانت عقوبة الساحر القتل ، ولا تجوز التعاويذ إلا إذا كانت من خلال آيات الله القرآنية

وأدعية قالها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتناقلها الرواة بشكل موثوق وصحيح .

ولو أن المجتمع الاسلامي أو حتى المجتمعات جميعها لجأت إلى القرآن والسنة في هذه المجالات، لتخلصت من كل مظاهر الجهل والتخلف، لأن الإسلام دين علم وعقل وعمل ، وهذا ما يتناقض كلياً مع السحر والشعوذة وما شابه ذلك .

هوامش الفصل الثالث

(١) مقدمة ابن خلدون ص (١١١) الفصل ٢٢ عن السحر والطلسمات
(٢) بيان القرآن وتفسيره ، محمد علي طه الدّرة ، دار الحكمة
(٣) معجزة القرآن الكريم محمد متولي شعراوي صفحة ١١
(٤) الكتاب المقدس العهد القديم سفر صموئيل الأول اصحاح ٢٨
(٥) مطلع قصيدة أبي تمام في فتح عمورية زمن المعتصم
(٦) مجموعة ابن سينا الكبرى طبعة شعبية ، المطبعة الهاشمية
(٧) مفاتيح الكنوز في حل الطلاسم والرموز طبعة شعبية
(٨) سحر بارنوخ ، طبعة شعبية
(٩) شمس المعارف
(١٠) التاج الجامع للأصول
(١٢) التاج الجامع للأصول وغيره من كتب الحديث
(١٣) مقدمة ابن خلدون ص ١٠٩
(١٤) التاج الجامع للأصول
(١٥) التاج الجامع للأصول رواه الأربعة
(١٦) صحيح مسلم

الفصل الرابع

الإسلام والشعوذة

الشعوذة وموقف الإسلام منها

كما دخلت الأساطير والسحر والخرافات حياة العرب ، فقد دخلت الشعوذة أيضاً ، ولاقت رواجاً في الأوساط الشعبية ، وقد وُجد محترفوها وعمالها وصانعو أوهامها وترتبط الشعوذة بالتنجيم ، والتنجيم كلمة مأخوذة من النجوم ، بمعنى أن المشعوذين يدّعون معرفتهم بعلم النجوم والأبراج ويدّعون أن هناك علاقة تربط النجوم بحياة الناس ، وقد عرف أصحاب هذه المهنة بالمنجمين والكهنة أو من يسمّون بالبصّارين ، وقد يدور بعضهم في حارات القرى فينادون (بصّارة براجّة ، والكلمتان مأخوذتان من البصر والبرج ، وهذا ادعاء من قبلهم بأنهم يبصّرون أعين الناس على معرفة المستقبل ، أمّا كلمة برّاجة فتتعلق أصلاً بعلم الأبراج الذي كان سائداً لدى البابليين ، وعنهم أخذ العرب وغيرهم هذه الصناعات والعلوم .

وترتبط الشعوذة بأعمال كالسحر وقد جاء في القاموس المنجد قوله شعوذ شعوذة استعمل الشعوذة فهو مشعوذ ، والشعوذة خفة في اليد وأعمال كالسحر تري الشيء للعين بغير ما هو عليه ، غير أن المشتغلين بهذه الصناعة يعتمدون بشكل كلي على مبدأ الإيهام الكلامي والفعلي ليخدعوا الناس ويسلبوا أموالهم .

وقد اشتهر من العرب في الكهانة والشعوذة امرأة يمنية يقال لها طريفة الخير وهي زوجة (عمر بن عامر) وقد رأت في منامها أن سحابة غشيت

أرضهم فأرعدت وأبرقت ، ثم صعقت فأحرقت كل ما وقعت عليه ، ففزعت طريفة لذلك فزعاً شديداً وأتت زوجها وكان ملكاً وهي تقول ما رأيت كاليوم أزال عني النوم ... رأيت غيماً أرعد وأبرق وزمجر وصعق فما وقع على شيء إلا أحرق . فلما رأى زوجها ما بها من الفزع سكنها ، وتدور قصة طويلة حوله وحول زوجته الكاهنة إلى أن تصل إلى مقصدها حيث تبشره بالخراب وقلة الأولاد وهلاك أهل اليمن . وتقول القصة إنها بشرته بخراب سد مأرب ، فخرب السد وهاجر أهل المنطقة لا يلوون على شيء .(١)

ومن الذين حاولوا أن يوهموا الناس بالتنبؤ والكهانة وشعوذ على الناس أمية بن أبي السلط ، وقد ادعى أن سقف بيته قد انشق وسقط فوقه طائران أحدهما شق صدره وأخرج قلبه منه ثم اعاده إلى صدره بعد حوار طويل يدور بين الطائرين .

ومن هؤلاء أيضاً كاهنة بني سعد التي خرج إليها عبد المطلب جد رسول الله صلى الله عليه وسلم ليسألها في مسألة النذر وذبح عبد الله ، فاستشارها في ذلك فأشارت عليه بوضع عشرة من الإبل وضرب القداح عليها وعلى ابنه ، فإن خرج القدح على الولد عليهم بزيادة عشرة جمال أخرى وهكذا حتى وصل عدد الإبل إلى المئة . فذبحها عبد المطلب ونفذ ما أشارت عليه الكاهنة .

ومن العارفين بالكهانة لدى العرب قس بن ساعدة الأيادي وكان اسقف نجران ، ويقال إنه كان طبيباً حكيماً بليغاً في مطقته ، وقد سأله قيصر الروم عن زجر الطير فأجابه مورداً في جوابه قصة رواها عن الملك أبي قابوس صاحب الحيرة .

وقيل إنه كان في كل قبيلة كاهن أو كاهنة يلجأ لهم أفراد القبيلة وزعماؤها في حالات الحرب والسلم أو الرؤيا أو ولادة المولود أو موت أحد وما شابه ذلك .

وقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن التعامل مع الكهنة أو تصديق ما يقولون لأنهم يعتمدون على غير الله ويكذبون على الناس .

قالت عائشة رضي الله عنها سأل أناس رسول الله صلى الله عليه وسلم عن

الكهان فقال ليسوا بشيء قالوا يا رسول الله فإنهم يحدثون أحياناً بالشيء يكون حقاً قال : تلك الكلمة من الحق يخطفها الجني فيقرها في أذن وليّه قرّ الدجاجة ، فيخلطون فيها أكثر من مائة كذبة(٢) وعن بعض أمهات المؤمنين رضي الله عنهن أن النبي صلى الله عليه وسلم قال من أتى عرافاً فسألة عن شيء لم تقبل له صلاة أربعين ليلة(٣) .

وفي رواية أخرى : من أتى عرافاً أو كاهناً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد وعن معاوية بن الحكم السلمي رضي الله عنه قلت : يا رسول الله : أمور كنا نصنعها في الجاهلية ، كنا نأتي الكهان قال فلا تأتوا الكهان ، قلت كنا نتطير قال ذاك شيء يجده أحدكم في نفسه فلا يصدنكم قلت ومنا رجال يخطّون قال كان نبي من الأنبياء يخط فمن وافق خطه فذاك)(٤) .

والخط يعني بالرمل ، والنبي الذي كان يخط هو إدريس عليه السلام وقيل دانيال عليه السلام كان يخط بالرمل بإلهام أو بأمر رباني ... وهذا مجهول الآن فلا يجوز تصديق من يدّعيه من خلال أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم نستدل أن الكهان ليسوا على الإسلام في شيء . ومن يتبع طرقهم فقد خرج عن الاسلام .. ونستدل أن من يصدق كاهناً فقد كفر بما أنزل من القرآن الكريم على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ونستدل أيضاً أن إتيان الكهان والضرب بالرمل والتنجيم إنما هي من الجاهلية ، وقد سميت الجاهلية بذلك بسبب الجهل بأمور الدين والعلم وربط الظواهر الطبيعية بمسببات علمية أيضاً ويرى ابن خلدون في مقدمته أن التنجيم إنما هي صناعة يزعم أصحابها أنهم يعرفون بها الكائنات في عالم العناصر قبل حدوثها من قبل معرفة قوى الكواكب وتأثيرها في المولدات العنصرية مفردة ومجتمعة فتكون لذلك أوضاع الافلاك والكواكب دالّة على ما سيحدث من نوع من أنواع الكائنات الكلية والشخصية ، فالمتقدمون منهم يرون أن معرفة قوى الكواكب وتأثيراتها بالتجربة وهو أمر تقتصر الأعمار كلها لو اجتمعت عن تحصيله ، إذ التجربة إنما تحصل في المرات المتعددة بالتكرار ليحصل عنها العلم أو الظن . وأدوار الكواكب منها ما هو طويل الزمن فيحتاج تكرّره إلى آماد وأحقاب متطاولة يتقاصر عنها ما هو طويل من أعمار العالم .

وما جاء في الشرع إن كان في القرآن أو السنة الشريفة يبطل ما يقوله هؤلاء المنجمون ويبين ضعف صناعتهم ومداركها ، وتضر في جميع الأحيان بحالة المجتمع الحضارية بشتى وجوهها لأنها تُبعث عقائد العوام من الفساد .

فإذا صادف شيء من الصحة فيها ما يحدث في الواقع ظن أنها صادقة فلا يرد الأمور لله سبحانه القادر على كل شيء ، وهذا ما يفسد العقائد والدين ، ويجعل الناس يقعون في حبائل الشرك والخروج عن تعاليم الاسلام إن كان ذلك بقصد أو بغير قصد . ويرى ابن خلدون بحسّه العلمي الاجتماعي ، أن المدّعين لأصحاب مهنة التنجيم يجب أن يحاربوا وأن تحظر صناعتهم على جميع أهل العمران لما ينشأ عنها من المضار في الدين والدول ويقول (فكيف يحصل منها طائل ونحن نجد الفقه الذي عم نفعه ديناً ودنيا وسهلت مآخذه من الكتاب والسنة وعكف الجمهور على قراءته وتعليمه)[٥] .

ويفصل ابن خلدون في الحديث عن العرافين وبعض الناس الذين يتمتعون بقوة إرادية تمنحهم فطنة لها علاقة بمعرفة خاصة بهم ، يقول ابن خلدون (ثم إنا نجد من النوع الانساني أشخاصاً يُخبرون بالكائنات قبل وقوعها بطبيعة فيهم يتميّز بها صنفهم عن سائر الناس ولا يرجعون في ذلك إلى صناعة ، ولا يستدلون عليه بأثر من النجوم ولا من غيرها . إنما نجد مداركهم في ذلك بمقتضى فطرتهم التي فطروا عليها وذلك مثل العرافين والناظرين في الأجسام الشفافة ، كالمرايا وطساس الماء والناظرين في قلوب الحيوانات وأكبادها وعظامها وأهل الزجر في الطير والسباع وأهل الطرق بالحصى والحبوب من الحنطة والنوى ، وهذه كلها موجودة في عالم الانسان ولا يسع أحد جحدها أو انكارها وكذلك المجانين يلقى على السنتهم كلمات من الغيب فيخبرون بها وكذلك النائم والميت لأول ميته أو نومة)[٦] ويقول (وكلهم من قبيل الكهان ، إلا أنهم أضعف رتبة فيه في أصل خلقهم لأن الكاهن لا يحتاج في رفع حجاب الحس إلى كثير معاناة ، وهؤلاء يعانونه بانحصار المدارك الحسية كلها في نوع واحد منها .

(وقد شاهدنا من هؤلاء من يشغل الحس بالنجوم فقط ثم بالعزائم للاستعداد ثم يُخبر كما أدرك ويزعمون أنهم يرون الصور متشخصة في الهواء تحكي لهم أحوال ما يتوجهون إلى إدراكه بالمثال والاشارة ، وغيبة هؤلاء عن الحس أخف من الأوّلين وأما الزجر وهو ما يحدث من بعض الناس من التكلم

بالغيب عن سنوح الطير أو الحيوان .

وقد يزعم بعض الناس أن هنا مدارك للغيب من دون غيبةٍ عن الحس فمنهم المنجمون القائلون بالدلالات النجومية ومقتضى أوضاعها في الفلك وآثارها في العناصر وما يحصل من الامتزاج بين طباعها بالتناظر ويتأدى من ذلك المزاج إلى الهواء ، وهؤلاء المنجمون ليسوا من الغيب في شيء إنما هي ظنون حدسية وتخمينات مبنية على التأثير النجومية وحصول المزاج منه للهواء مع مزيد حدس يقف به الناظر على تفصيلة في الشخصيات في العالم .

ويقول عن الضاربين في الرمل (ومن هؤلاء قوم من العامة استنبطوا لاستخراج الغيب وتعرّف الكائنات صناعة سموها خط الرمل نسبة إلى المادة التي يضعون فيها عملهم ، ومحصول هذه الصناعة أنهم صيّروا من النقط أشكالاً ذات أربع مراتب تختلف باختلاف مراتبها في الزوجية والفردية واستوائها فيهما ، ويزعمون أن أصل ذلك من التنبؤات القديمة في العالم وربما نسبوها إلى دانيال أو إلى إدريس عليهما السلام ، فإذا أرادوا استخراج مغيَّبٍ ـ بزعمهم عمدوا إلى قرطاس أو رمل أو دقيق فوضعوا النقط سطوراً على عد المراتب الأربع ، ثم يحكمون على الخط كله بما اقتضته أشكاله من السعوّدة والنحوس بالذات والنظر والحلول والامتزاج والدلالة)[٧] وقد بقيت مهنة التنجيم إلى يومنا هذا ودخل عالمها كثيرون من الذين استهواهم كسب المال غير المشروع وخداع الناس واللعب بأهوائهم ومشاعرهم وعلاقاتهم الاجتماعية والانسانية . وينتشر بعضهم في القرى والمناطق الريفية والبدوية . وحاول بعضهم تطوير هذه الصناعة حتى أنهم يطلبون من الناس أموالاً طائلة بحجة انهم يشفونهم من الأمراض المستعصية كالعقم والأمراض النفسية .

وكما ورد فقد تنوعت أساليب التنجيم والشعوذة ، فمنها ما يعتمد على الضرب بالرمل أو الكشف في الكف أو الزيت ، وقد طورها الناس في الأوساط الشعبية حتى أصبحت تستخدم فنجان قهوة أو الحصى أو السبحة .

وعادة ما يلبس المشعوذون المحترفون لباساً معيناً يوحي بصناعتهم ، فيُطيلون شعر ذقونهم وشواربهم وبعضهم يرسم على يديه عن طريق الوشم بعض الرسوم التي لا يفهم منها شيء سوى الإيحاء بالخوف أو الدهشة ويحملون معهم كتباً قديمة ذات أوراق صفر توحي بأنها قديمة جداً وفيها من

كنوز المعرفة ما فيها .

إلا أن المنجمين غير المحترفين في صناعة التنجيم فإنهم ينتشرون في أوساط بعض الغجر المنتشرين في الوطن العربي وشرق أوروبا . وهم في الشرق ينتقلون من مكان لآخر كالبدو الرحّل ، وبعضهم يعتمدون في معيشتهم على تجوال نسائهم في كل مكان فإما أن يتحايلوا عن طريق التنجيم أو أنهم يستعطون كمهنة دائمة لهم ، وتحمل المرأة منهن بعض الصدفات التي يطلق عليها اسم الودع ، ومع تطور البناء والاستقرار في هذه المناطق استقر بعضهم في بيوت سكنية كبيرة ، واحترفوا مهناً أخرى مثل صناعة الطبول وبعض الآلات الوترية الشعبية والقصبية ، ثم إن بعضهم هاجر إلى المناطق البترولية كالسعودية ودول الخليج ، يصنعون بعض الآلات القصبية والوترية الخاصة للأطفال .

وتحفظ المرأة المنجمة مجموعة من الجمل المسجوعة تلقيها أثناء رميها (للودع) وغالباً ما تتحدث للشاب أو الفتاة عن مستقبل الزواج وعن فارس وفارسة الاحلام ، وتلجأ بعضهن إلى اللعب بالخفة حيث تعقد خيطاً عدداً من العقد وبطريقة تعرفها هي دون غيرها تفك العقد وأثناء ذلك تتحدث بعض الكلام المسجوع ، لتوهم السامع أنها على صلة بقوى خفية تساعدها في معرفة الغيب . وبعض رجالهم يتجولون في حارات المدن القديمة والأرياف مدعين أنهم يعرفون الطالع وذلك بواسطة السبحة ، حيث يستخدمونها في عد حباتها وربط ذلك ببعض الكلمات والجمل المسجوعة أيضاً . ويدّعي بعضهم الطب حيث يحاول خداع بعض المرضى بأنه يعرف دواء المرض فيوصي بفعلٍ مّا أو بقول ما . ولا يتم ذلك إلا بعد دفع المال لهم ، وهي وسيلة للكسب والعيش لديهم .

ولعل من أسوأ ما قيل عن بعض المشعوذين أنهم يطلبون من الرجل أو المرأة قراءة بعض سور القرآن وآياته مقلوبة إما من الآخر حتى الأول أو بقلب حروف الكلمة ورغم أن في ذلك صعوبة خاصة بالنسبة لقلب حروب الكلمة إلا أن ذلك بمجمله خرق للعقيدة ومس في قدسية القرآن الكريم واعتداء على كلام الله . ويدعون أن من قرأ آية الكرسي مقلوبة فإن جنّياً سيظهر له ويخدمه وينفذ ما يريد . أو أنه سيحصل على مراده في المال أو الزواج أو ما شابه ذلك .

التنجيم والبروج

جاء في القاموس المنجد نجّم أي وعى النجوم وراقبها ليعلم منها أحوال العالم . والمنجم ، النجّام الذي يزعم معرفة حظوظ الناس ومصايرهم بحسب مواقع النجوم ويقال لهذا العلم علم التنجيم ويقوم التنجيم حسب ادعاء بعض علمائه القدامى على حساب النجوم والسنين والطوالع ، والبروج والطبائع من دخول العام أو السنة الجديدة ومعرفة ساعات الليل والنهار ، وما يصلح فيها ضد ذلك مجملاً وبيان الكواكب وما لها من المعادن والساعات السعيدة والنحسة وأشكال الرمل وحروفه المرافقة للأمثلة والضمائر .

ويقولون حسب ما جاء في مقدمة ابن خلدون إنه إذا دخل العام الجديد يوم الأحد فإن الدخول يكون للشمس وبرجها القوس وطالعها المشتري ، وذلك يدل على جور السلطان وظلم الأمراء ونيّات الحكام واستطالة الخدام والأعوان ، ووخم وأمراض وقلة أمطار ويكون هم عظيم . أما الأرض فإنها تخضع لكثرة الحرارة والسموم . ويقع موت كثير للناس ، وإن دخلت السنة يوم الاثنين فإن الدخول يكون للقمر وطالعه برج السرطان ويدل على عدل السلطان وإصلاح الامراء والحكام وهدوء الخدم واستقامة الرعية ، وكثرة الأمطار وصلاح الزراعة ورخص القمع والحبوب ، ويقع حرب في الأرض وقتال عظيم ، ويكون الحر شديداً ، ويكثر الوباء والموت .

وإن دخلت يوم الثلاثاء فبرجها العقرب ويكثر فيها موت الاشراف وأكابر الناس والعلماء .

وإن دخلت ليلة الأحد (ليس في النهار) يصلح الزرع ويقع غلاء في كل

شيء وتقع حرائق في الليل وتهب رياح مضرة ويكثر الطاعون وتقل الأمطار .

وإن نزلت السنة ليلة الاثنين كانت سنة رخاء وسخاء وأمن وأفراح وسلامة من الأمراض ، ويعدل الأمراء وينصف الحكام .

وإذا نزلت يوم الأربعاء كانت السنة طيّبة ذات أفراح وولائم وراحة ، وترفع فيها مرتبة أصحاب الأقلام والمناصب ، وإذا نزلت ليلة الأربعاء يكثر المطر ويقل الضرر ولكن يظلم أرباب العمل عمالهم .

وإذا نزلت يوم الخميس فإن السنة تقسم إلى ثلث خير وثلث شر وثلث ربح للتجارة ويدعون أن في ساعات النهار أوقات نحس وأوقات سعد ، فأول ساعة منه هي للشمس ، وهي تصلح للسفر ولبس الثياب ، والدخول على الملوك والأمراء ، وساعتها الثانية هي للزهرة يعمل فيها للمحبة والاصلاح والثالثة لعطارد ، وفيها قضاء الحوائج والرابعة للقمر لا يباع ولا يشترى فيها أبداً والخامسة لزحل فهي نحس لا يصلح فيها شيء والسادسة للمشتري ، وهي صالحة للقضاء وللشراء والبيع ، والسابعة للمريخ فهي للطب وإهراق الدم وإذا خاصم أحد فيها أحداً فإنه يقهر والثامنة للشمس تناسب لخدمة الملوك والأمراء والسلاطين وطلب المنصب والسفر للبلاد السعيدة ، والتاسعة للزهرة وفيها أفعال من أجل الحب وأحوال النساء .

ويربطون الأبراج بالأيام مجتمعة . فيقولون إن يوم الاثنين وليلة الجمعة مرتبطان بكوكب زحل ، وهي نحس ولا تطلب فيها المشاركة ، وفيها ساعات نحس كثيرة وفيها ساعات لتخزين الثمار وركوب البحر .

أما يوم الثلاثاء وليلة السبت ففيها ساعات رديئة جداً ووبال على كثير من الناس ، وافعل فيها الضرر لأرباب الأقلام وأولاد الأعوان ، فيها ساعة للعداوة والضرر لأبناء الرق والعبيد .

ويتحدثون عن باقي الأيام والليالي وعن علاقتها بالكواكب وعن الساعات النحس فيها وهي كثيرة جداً لا مجال لذكرها .

وفي مجال آخر فإن بعض المنجمين يلجأ إلى الحساب والرياضيات مع الأخذ بعين الاعتبار النجوم والطوالع ، ومنها مثلاً حساب اسم الانسان والنظر فيما له من البروج والكواكب ، ثم حساب اسم الأم ، فإن خرج برقم ١٢ وزاد رقم واحد فإنه يكون شخصاً نارياً ، وإن زاد رقمان فهو ترابي يتبع الزهرة ، وإن زاد ثلاثة أرقام فنجمه الجوزاء وطالعة عطارد وهو هوائي . وإن بقي

أربعة أرقام فنجمه المريخ فهو مائي ، وعلى شاكلة ذلك يحسبون بالأرقام ويربطونها بالنجوم ولا يفهمها سواهم .

وكثير من الناس يؤمنون بما يقوله أصحاب صنعة التنجيم ، والأغرب من ذلك أنهم يستشيرونهم في أمور الزواج ويحددون لهم اسم الفتاة أو الشاب وذلك ليعرفوا ما إذا كان يتناسب الشاب مع الفتاة ، وكثيراً ما يدعي هؤلاء المنجمون أن هذه الفتاة لا تتوافق مع الشاب لأن برجها على نقيض مع برجه ، وإن حدث وتزوج الشاب من الفتاة وحدثت مشكلة عادية بينهما فإنهم يردون ذلك إلى ما قاله المنجم عن عدم توافق برجيهما .

وكثيراً ما تنعكس هذه الاعتقادات على الحياة الاجتماعية دون أدنى نظر إلى ما يقوله الشرع الاسلامي في هذا الشأن ، وتؤدي بالتالي إلى نتائج سلبية وآثار ليست محمودة على العلاقات الأسرية والزوجية .

ومن ناحية أخرى فإن بعض من يعتقدون بالابراج والتنجيم يُقيمون علاقاتهم مع الآخرين على أساسٍ من موافقه أبراجهم لنفوسهم أو عدمها ، فتلاحظ أن أحداً من الناس يتخوف من صحبة آخر لا لسبب إلا لأن برجه العقرب مثلاً ، وهذا بالطبع يتنافى مع أبسط قواعد العقيدة الاسلامية وتعاليمها .

أما الوسائل التي يستخدمها المنجمون والمشعوذون فهي متعددة متنوعة منها الضرب بالرمل والكشف في المندل، والتنجيم في الفنجان، ومنها استخدام الورق للكتابة وكتابة الحجب والتمائم .

أما الحجب والتمائم فيكتبها المنجم بأقلام حبر ذات ألوان عدة فيكتب بالحبر الأزرق تارة أو بالأحمر والأخضر تارة أخرى ليزيد في توهم المرء ، وعادة ما تكون ورقاته عبارة عن قصاصات يلفها حتى تصبح ذات حجم صغير ثم يطلب من صاحبها أن يضعها في قطعة قماش ويخيطها لتُعلق على صدره أو في جيبه أو في أي لباس يلبسه ، ومن هذه الحجب ما هو ذو أشكال ، فمنه المثلث ومنه المربع وحسب زعمهم فإن لكلٍ من هذه الحجب اختصاصه وفعاليته التي لا يتمتع بها الصنف الآخر .

وقد انقسمت هذه الأعمال إلى قسمين ، قسم يعتمد على كتابة آيات قرآنية وأسماء ملائكة وتكتب بأشكال غير مألوفة ، وقسم يعتمد على الاستعانة بأسماء من الجن والعالم غير المرئي كما يزعمون ، وقد يخلطون بين اسماء الله الحسنى وبين أسماء غريبة من الجن والملائكة ، وأحياناً تختلط

بأدعية دينية مرتبطة بالمقصد الذي يبغيه صاحبه منها مثلاً باب دعوة إحراق الجن ويقول فيها (بسم الله الرحمن الرحيم أن لا تعلوا علي وأتوني مسلمين) مسرعين طائعين لله رب العالمين عزيمة من الله ورسوله إلى كل جان وجنية وشيطان وشيطانة وما رد وما ردة وغول وغيلانه من الأبالسة والغطاطسة والزوابع والعفاريت والعمالقة والخواطف والمسترقين السمع من السماء والغواصين تحت الثرى صغيركم وكبيركم حرّكم وعبدكم ذكوركم وإناثكم، صحيحكم وسقيمكم وأعماكم وبصيركم ، سكان البراري والقفار والكهوف والتلول ورؤوس الجبال ، أعزم عليكم يا هؤلاء الذين سميت منهم ومن لم أسمّ في عزيمتي ، أقسمت عليكم يا معاشر الجن والشياطين والأعوان تحضرون الساعة وتتوكلوا بهذا العاصي المتمرد . أين ميمون الغمامي أين أبو الوليد صاحب العذاب ، اين هو من خدام الأحمر بن مروان الأسود السيف ، وهذا الكلام يكتب ويوضع على الكف .

فمثل هذا الكلام المنسوب إلى أقوال المنجمين الكبار يعتريه كثير من الوهم ، وأول هذا الوهم أنه عزم على الغول والغولة ، والرسول صلى الله عليه وسلم أنكر وجودهما كما مر معنا سابقاً ، وحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم يستند إلى القرآن الكريم الذي هو كلام إلهي وليس كلاماً وضعياً من صنع البشر ، ورغم أن المنجم يدرك ويعرف أن الرسول صلى الله عليه وسلم نهى عن تصديق مثل هذه الأوهام يظل بعض المنجمين يعملون بوحي من تخيلهم وأوهامهم ، وهم بذلك يخالفون الله ورسوله والشريعة وثاني هذا الوهم أن الجان لا تعرف أسرار الغيب إنما هي تسترق السمع فتخلط ألف كذبة بحقيقة واحدة تعتمد على المصادفة .

ثم إن الاستعانة بغير الله إشراك وهذا ما يرفضه الإسلام ويحاربه .

أما الضرب بالرمل فإن المنجم يضع كومة من الرمل الأحمر أو الأبيض في قطعة قماش فإذا أراد أحد الناس أن يستعين به ، يضع قطعة القماش المملوءة بالرمل ويفردها ثم يسوي الرمل عليها ويأخذ برسم خطوط بأصبعه عليها ويتحدث بكلام غير مفهوم موحياً بأنه يتحدث إلى قوى خفية كالجن أو الملائكة ليعينوه ويخبروه ما يريد ، كأنْ يكشف عن سرقة أو مرض أو عن علاقة حب بين زوج وزوجةٍ وما شابه ذلك .

والغريب في الأمر أن هذا المنجم يطلب المال بلسانه فإذا كان قليلاً رفض

أخذه ورفض العمل بالتنجيم ويتضح من ذلك أن هؤلاء المنجمين تجار مهنة ، ولو كانوا قادرين فعلاً على حل مشاكل الناس المستعصية لاستطاعوا حل مشاكلهم بجلب المال أو ذهب الكنوز عن طريق شياطينهم الذين يدعون ويزعمون الصلة بهم والحكم عليهم بما يريدون .

ومن ذلك أيضاً المندل ويستعملون فيه فنجاناً أو كأساً يضعون فيه زيتاً أو خلاً أو ماء ، ويجلس المنجم قبالة الشخص الذي جاء ليكشف أمره ، ويعزّم المنجم ويقول كلمات لا يفهم أكثرها ، ويدعي أن صورة مّا ترتسم على صفحة الزيت فتخبره بما يريد .

ويتحدث أحد الكتب الخاصة بالتنجيم عن مندل ويقول عن صفة العمل فيه . وهو أن تحضر صبياً دون سن البلوغ وتكتب الوفق التالي ، وتجعله في مرآة وتعطيها للصبي ينظر فيها وتكتب له الكشف التالي في ورقة تجعلها على جبهته ثم تطلق البخور وتعزم بالعزيمة التالية إلى أن يحضر الخادم وتأمره بالتكنيس والرش ونصب الخيام والكراسي وحضور الملوك السبعة ثم تأمر الخادم يحضر كبشاً ويذبحه ويسلخه ويطبخه وتقول (أقسمت عليكم وعزمت عليكم يا معشر الأرواح الروحانية السفلية بالزبور والفرقان ، أقسمت عليكم يا مذهب بيا ٢٠ ويأمرة بسام ٢٠ ويا أحمق بدملاح ٢ ويا شمهورش وبددموس ويا زوبعة سبوح بينو ما أسألكم عنه بحث هذه الأسماء)[٨]

وبعضهم يرسم جدولاً مربعاً مقسماً إلى تسعة مربعات يضع فيها المنجم أرقاماً يدعي أنها ترتبط ببعضها من جهة وبالشخص من جهة أخرى لتحل له مشكلة أو مرضاً .

وفي هذا المندل ما هو دافع للدعاء على الناس بالموت والهلاك ودمار بيوتهم ، وهذا ما ينافي أخلاق الاسلام الداعية للتسامح ومعاملة الآخرين معاملة حسنة .

ويقولون فيه ، تمزج اسم من تريد هلاكه في معروق ف م ن ي ع م ل م ث ف ا ل د ر ة ش ر ا ب ر ه وتكتب الخاتم وتتلو الدعوة إحدى وعشرين مرة وتحرق الخاتم مع اسم امه فإنه يلزم الوسادة ومن أساليب المشعوذين ما يسمى قراءة الكف ، وقد انتشرت هذه الصنعة بشكل كبير في أوساط شعوب العالم قاطبة وقد ألفت فيها الكتب وتناولها الناس على أنها علم كالسحر أو كشف الغيب .

ويمسك المنجم كف المرء من أصابعه وينظر فيه بشكل يوحي بأنه سيكتشف شيئاً ويبدأ حديثه عن أن صاحب الكف سيحصل معه كذا وكذا ، وكان يعاني من كذا وكذا وأنه سيرزق مالاً وولداً وأن حاسدية ومبغضيه سوف يندحرون وما إلى ذلك من الكلام الذي يدخل وجدان السامع فقد يريحه وقد يخيفه وينسى لحظتها أن الأمور كلها بيد الله الذي خلق الانسان والكون ودبر حياته ومعيشته حتى موته .

ولعل التنجيم بالفنجان ومن خلال القهوة ما يزال ينتشر ويتسع بشكل كبير في أوساط المجتمع على مختلف فئاته وبينم النساء خاصة ويأخذ منحى التسلية وتعبئة الفراغ . وتجتمع النساء عادة من جارات وقريبات في منزل إحداهن ، وبعد شرب القهوة تقوم من تدعي التنجيم بتفحص الفناجين والتحديق فيها بعد أن تلوث جوانب الفنجان من الداخل (بتفل) القهوة ، وقد تطلب منهن قلب الفناجين على أفواهها وبعد برهة تجف بقايا القهوة فتظهر خطوط ورسوم مختلفة فتأخذ المرأة فنجاناً وتبدأ بالحديث عن أشياء ماضية ومستقبلية ، وعادة ما يحرك الفنجان قبل قلبه على (فمه) لأجل أن تغطي بقايا القهوة كافة أجزاء الفنجان من الداخل .

ومن الرموز التي تعارف عليها نساء المجتمع رمز السمكة وهو ما يرمز إلى الرزق والمال وشكل الطير الجميل الذي يرمز لولادة طفل جميل ، ثم شكل الخطوط المفتوحة التي ترمز إلى الطرق الميسرة والمسهّلة ، والخطوط المغلقة التي تعني الطرق عديمة التيسير وتحير الانسان ، وهناك إشارات تومي بأن الرزق يأتي بعد ثلاث علامات ، هي ثلاثة أيام ، أو أشهر أو أسابيع وقد احترفت بعض النساء هذه المهنة التي كان القصد منها التسلية ثم صارت تتقاضى على كل فنجان قطعة نقود محددة أو غير محددة .

ومن خلال التنجيم بالفنجان يظهر لنا مدى الجهل ومدى ما أصاب المجتمعات من انحطاط فكري وديني ولو دقق المرء في هذه المهنة لوجد أنها تجدف على الله والشريعة ، وتكذب على الناس ، بل إنها بادعائها معرفة المستقبل تشرك بالله ، وكل ذلك مقابل بعض النقود أو بدون مقابل .

وحتى وإن كان القصد منها التسلية وملء الفراغ فإن الحديث عن المستقبل تعدٍ على حدود الشرع وعلى حدود القدرة الوحيدة لله سبحانه والتي تختص بعالم الغيب دون غيرها .

الجن واستخراج الكنوز هل ثمة علاقة بينهما؟

تنتشر في الأوساط الشعبية اعتقادات ترى أن ثمة علاقة بين قوى خفية وبين الكنوز الذهبية والفضية ، وتعود هذه الاعتقادات في جذورها إلى قصة النبي سليمان عليه السلام مع الجن والشياطين ، حيث يقال أن النبي سليمان عليه السلام كان يُخضع الجن والأبالسة ولا يخالفون له أمراً ومن كان يعصيه يضعه في قمقم يحبسه فيه أياماً وسنوات طويلة ، فإذا ما خرج هذا الجني من حبسه بطريق الصدفة يعود إلى حالته الأولى وينطلق حراً . وقد بنيت على هذه القصص حكايات في الشرق كله ، وقصص ألف ليلة وليلة مليئة بمثلها ــ كقصة الفانوس السحري والجوهرة المسحورة وما شابه ذلك .

وقد انتشرت بين الناس قصص تتحدث عن كنوز ذهبية يكلف أحد أفراد الجان بحراستها ويكون هذا الجني على شكل ثعبان أو فتاة جميلة أو حيوان مفترس أو قط أو كلب ، وهذه الكنوز لا تنفتح أبوابها إلا بقراءة طويلة من بعض الكتب المتخصصة بالسحر والتعزيم والاقسام الغليظة ، أو انها تفتح على وجه إنسان معيّن دون سواه وإلاّ يؤذي الجني أي شخص يحاول استخراج هذا الكنز .

وعادة ــ حسب ما يشيعيون ــ يكون الكنز في مغارة أو تحت الأرض وله بعض العلامات الدالة على وجوده لا يعرفها إلا الدهاة من السحرة .

وهناك كنوز ذهبية او فضية ليس لها علاقة بقوى خفية وهذه عبارة عن أموال ذهبية دفنت تحت الأر ض لغاية العودة إليها من قبل الأبناء والأحفاد ، وقد يعثر عليها أثناء التنقيب عن الآثار القديمة ، وتحميها الدولة على اعتبارها شواهد تاريخية لها قيمة كبرى لا تباع ولا تُشرى .

أما بالنسبة للكنوز التي يقال عنها ــ مرصودة ــ من قبل الجان فإن طالبها إن لم يكن خبيراً بالسحر فإنه سيؤذى من قبل راصدها الجني أو أن هذه الكنوز ينقلب ذهبها إلى أي شيء آخر ليس له قيمة كالتراب .

وقد أصاب بعض الناس (هوس) بسبب البحث عن الكنوز حتى أنهم تفرغوا لمثل هذه الأعمال دون طائل ، ومنهم من يسافر ويبحث ويسأل عن السحرة والعارفين باستخراج الكنوز وقد تحدث ابن خلدون عن هؤلاء المشغوفين بهذه المهن :

فجاء في مقدمته: «اعلم أن كثيراً من ضعفاء العقول في الأمصار

يحرصون على استخراج الأموال من تحت الأرض ويبتغون الكسب من ذلك ، ويعتقدون أن أموال الأمم السالفة مختزنة كلها تحت الأرض مختوم عليها كلها بطلاسم سحرية لا يفض ختامها ذلك إلا من عثر على علمه واستحضر ما يحله من البخور والدعاء والقربان ، ويتناقلون في ذلك أحاديث تشبه حديث خرافة من انتهاء بعض الطالبين لذلك إلى حفر موضع المال ممن لم يعرف طلسمه ولا خبره فيجدونه خالياً أو معموراً بالديدان أو يشاهد الأموال والجواهر موضوعة والحرس دونها منتضين سيوفهم أو تميد به الأرض حتى يظنه خسفاً أو مثل ذلك من الهذر »(٩)

ومن تلك القصص التي يتناقلها بعض الناس قصه تقول :

إن أحد الناس كان يمتلك كتاباً يتحدث عن الكنوز وأماكنها وكيفية استخراجها ، اتفق مع أحد السحرة المغاربة على استخراج كنز مرصود من قبل جنية صبية جميلة جداً ولا يصل عمرها إلى العشرين عاماً .

وتقول الحكاية أن الساحر المغربي علّم الرجل كيف سيستخرجان الكنز بحيث أن الساحر يقرأ في الكتاب التعزيمات والأقسام فوق أرض الكنز حتى تخرج الفتاة ، فيبدأ الرجل الآخر بضربها بالسوط بقسوة ويطلب نزع ثيابها فإذا ما نزعت كافة ثيابها وظهرت كل مفاتن جسدها تسقط متحولة إلى تراب وتُفتح الأرض عن كنز من الذهب ، كبير لا ينفذ مالُه ، وعلى الرجل الذي يضربها أن لا تدخل قلبه شفقة أو ميل عاطفي أو هوى لأنه لو مال لها ـ وهي الجميلة جداً ـ سوف يطير من مكانة هو والساحر كل في جهة ويخبط في الأرض حتى يؤذى بكسور أو ما شابه ذلك من الخرس أو الشلل أو الفالج .

ويذهب الرجل والساحر إلى مكان الكنز الذي يقع بين الجبال ، ويأخذ الساحر بقراءة الأقسام والعزائم والرجل ينتظر ظهور الفتاة الجنية ، وعندما تظهر يبدأ بجلدها بالسوط وهي تستجدي منه الكف عن الجلد وتبكي ، ويطلب منها خلع ثيابها ، وتأخذ الفتاة بخلع الثياب حتى لم يبق على جسدها سوى ما يستر وسطها ، وعندها تأخذ الرجل الشفقة والهوى والميل لمفاتنها فيكف عن جلدها ، وما هي لحظات حتى يطير الكتاب من بين يدي الساحر وتحمل قوى خفية الرجلين ويُلقيان بعيداً وكل منهما قد أصيب بالخرس والشلل النصفي ، ويعثر عليهما رعاة الأغنام ويُنقلان إلى بيتيهما بعد جهد حيث فشل أهلهما بعلاجهما إلا بعد سنوات حيث تحدثا عما حصل لهما بشأن استخراج

الكنز والفتاة وبقية أجزاء أحداث القصة .

وتناقلت الأوساط الشعبية أيضاً أن كنزاً ذهبياً موجود في بعض تلال الجولان وأن ثعباناً ضخماً يرصده ، ويقال إن راعياً كان يرعى غنماً وقد مر في المنطقة الموجود فيها الكنز ، فإذا بالثعبان يخرج ويتحدث مع الراعي ويطلب منه أن يقفز من فوقه ، فيخاف الراعي ويعود مهرولاً إلى الوراء ويقولون إن الثعبان جني إذا ما تخطاه إنسان عاد إلى طبيعته وانفتح الكنز أمام ذلك الانسان ، ويدّعون أيضاً أن الثعبان يخرج مرة كل عام فإذا صادف أحد الناس طلب منه القفز من فوقه ، غير أن الكنز ما يزال مخفياً ولم يستطع أحد أن يحصل عليه ، ويتحدث في مثل هذه القصص أهل المنطقة من فلاحين ورعاة ..

ويتحدث كثيرون من الفلاحين أن قبوراً لبعض الصالحين المدفونين منذ زمن بعيد تنتشر في فلسطين وكانوا يعتبرون تخريبها أو مسّها بسوء من المحرمات ، ويقال إن الصهاينة عندما احتلوا فلسطين عام ١٩٤٨ حفروا هذه القبور وأخرجوا منها كنوزاً ذهبية قديمة ليس لها علاقة بجن أو بما يسمونه الرصد ، إنما هي من مخلفات العصور الكنعانية أو غيرها ، أو أنها من الأموال الذهبية التي دفنها بعض اليهود الذين احتلوا فلسطين في عصور قديمة ، وكل ذلك لم يكن مؤكداً سوى أن أقوال الناس في الأوساط الشعبية تتناقل هذه القصص وتزيد عليها من مخيلتها .

الشعوذة في عصر التكنولوجيا :

رغم التطور العلمي الذي آلت إليه الحضارة الغربية وغلبة العقل على كل شيء من مجالات الحياة إلا أن الشعوذة ما زالت تنتشر في كافة أنحاء العالم وتأخذ أشكالاً حديثة أو متطورة ، وتصل عقول الكثيرين من الطبقات المثقفة والمتعلمة وحتى السياسية ، ولعل الفراغ الديني والروحي بشكل عام والذي تعيشه المجتمعات الأوروبية دفع الكثيرين نحو البحث عن عالم آخر مغاير لعالم المادة وطغيانها . وكان بعضهم يجد في الشعوذة ملاذاً وكذلك السحر وألعاب الخفة والخداع .

بيد أن الأمر لم يتوقف عند هذا الحد بل تعداه إلى ما هو أدهى وأمر ، فكثيرون من أبناء تلك المجتمعات يندفعون نحو العرافين والمنجمين ليساعدوهم حسب وهمهم في تحديد مسارات مستقبلهم وعلاقاتهم بالآخرين .

وفي بعض الأحيان يستعينون بالمشعوذين بسبب عجز الطب عن شفاء بعض الأمراض المستعصية لا سيما تلك المرتبطة بالجنون وانفصام الشخصية أو ما شابه ذلك .

وقد نقلت وكالة رويتر خبراً قالت فيه (قالت دراسة انه يوجد في الصين ١,٨ مليون مشعوذ يعالجون الأمراض العقلية التي يعاني منها الفلاحون في المناطق الريفية وأن عددهم يفوق عدد الأطباء في البلاد .

وقالت صحيفة سانشي اليومية إن هذه المعلومات جاءت نتيجة بحث استغرق عشر سنوات قام به (لي سنجشيان) مدير معهد أبحاث الصحة العقلية في مدينة (شيا) وقالت الصحيفة إن الدراسة تعطي هذه النتيجة المفاجئة وهي ربع المرضى العقليين في ريف الصين يستشيرون مشعوذين بدلاً من أطباء .

أضافت الصحيفة أن عدد المشعوذين الذين وجدتهم الدراسة والبالغ مليون وثمانمئة الف شخص يتجاوز عدد الأطباء في الصين[١٠]

وتنتشر الشعوذة في الولايات المتحدة الأمريكية بشكل كبير حيث تتداخل مع بعض الأفكار الدينية اليهودية وغيرها ، وبين الحين والآخر تذكر الصحيفة أن حركة دينية جديدة قد ظهرت في الولايات المتحدة ، وهذه الحركة أو غيرها تستند إلى معالم الخرافة وبعض العقائد الأسطورية البائدة .

ولعلنا لا نستغرب حين نقرأ في كتاب النبوءة والسياسة أن ريغن الرئيس الأسبق للولايات المتحدة كان لديه عدد من ا لعرّافات اللواتي يساعدنه حسب زعمه في التنبؤ وكشف المستقبل ، وقد أفصح هذا الكتاب كثيراً عن المعتقدات الدينية الأسطورية التي يستند إليها البروتستانت في أمريكا ومنها مثلاً تدمير العالم في معركة هر مجدّون حيث يقود المسيح الآتي من السماء اليهود والمسيحيين في حرب ضد قوى الشر .(١١)

ومن تلك الحركات المستندة إلى أساطير وشعوذات حركة لوبافيتش اليهودية المتطرفة التي قالت أنه سيتم في نيويورك تنصيب الزعيم الروحي للحركة مناحيم ميندل شنيرسون البالغ من العمر ٩١ عاماً والمصاب بشلل نصفي (مسيحاً لليهود لمناسبة الذكرى الثالثة والأربعين لتسلمه قيادة الحركة العالمية) .

وقالت الناطقة باسم الحركة المتطرفة هيلينا سبيرلنغ إن شنيرسون هو في الواقع المسيح منذ ٤٣ عاماً وأثناء عيد المظلة الأخير تلقى الأمر الإلهي بكشف هويته كمسيح بنظر اليهود ، وسيحتفل به بهذه الصفة ، وأضافت أن (أحداً لا يستطيع القول ماذا سيجري ، وبحسب المعتقد اليهودي فإن مجيء المسيح يعلن عنه النبي إيليا ويعني ذلك اعادة بناء الهيكل الثالث وخلاص اليهود .(١٢)

ويذكر أيضاً أن حركة تسمى الحركة الداوودية قد عقدت اجتماعاً في نيويورك لمنتسبيها وكما ذكرت الوكالات فإنها تقوم بأعمال شاذة جداً على صعيد المجتمع مما حدا بالسلطات الأمريكية بمهاجمة مقرها وقد جرت اشتباكات راح ضحيتها قتلى ، وظلت قوات الشرطة الأمريكية تطوق مكان الاجتماع حتى ظهر فجأة دخان كثيف وحريق داخل المبنى وبعد فترة تبين أن زعيم الحركة الدينية قد أحرق نفسه وأتباعه وتبين أيضاً أن حوالي مئة من اتباع هذه الحركة قد ماتوا حرقاً ، وتقوم ممارسات هذه الحركة على ما يمليه زعيمهم من هرطقات وشعوذات ، وتدعو إلى الإباحية والعدمية والإيمان

بالخرافات والسحر والمعتقدات الأسطورية .

وتذكر الأخبار أن في الولايات المتحدة أكثر من أربع مئة حركة دينية وفلسفية أكثرها يقوم على الشعوذة والغيبيات السحرية والمعتقدات الأسطورية البائدة ، وينتشر المتنبئون في أكثر دول العالم والمجتمعات ، ويدعون أموراً غاية في الغرابة وغاية في الخداع ، ففي اليابان وتايوان وهونغ كونغ وغيرها من دول جنوب شرق آسيا ينتشر دعاة التنبؤ من اتباع الديانة البوذية وشبيهاتها من العقائد الوثنية وفي بداية هذا العام ١٩٩٣ ادعى أحد المتنبئين أن يوم القيامة سيكون في يوم كذا أو ساعة كذا ، وقد حدد موعدها وساعتها ، وقد انتظر الناس ذلك اليوم بخوف شديد لكنه لم يحدث شيء من هذا القبيل ، فهاجمت الجموع مقره وطعنوه بالسكاكين وقتلوه وجرحوا عدداً كبيراً من أتباعه الذين فروا أمام الجموع الغاضبة ، وقالت الوكالات آنئذ إن الناس قد أصابهم الذعر ، وبعضهم أقدم على الانتحار خوفاً من رؤية يوم القيامة وجرى كثير من الحوادث بسبب هذه النبوءة الخرافية .

ونذكر جميعاً حينما ظهر مذنب هالي وهو يسير بسرعة فائقة في الفضاء الخارجي وماذا تنبأ بعض المشعوذين عن اصطدامه بالأرض أو اصطدام ذيله الغازي بجزء منها .. وقد اعتقد كثيرون بهذه الشعوذات حتى أن موجة من الانتحار أخذت بالانتشار في أوساط بعض المجتمعات تخلصاً من منظر حرق الأرض إذا ما اصطدم بها هذا المذنب ، وفي شهر حزيران ١٩٩٣ نشرت الصحافة نبأ إلقاء الشرطة الصينية القبض على امرأة ريفية في شمال الصين استبدت بها الرغبة في إنجاب طفل ذكر فأقدمت على قتل بناتها الثلاث بالسم بناء على نصيحة أحد العرافين .

وقالت الشرطة إن المرأة استشارت أحد العرافين بشأن فشلها في إنجاب طفل ذكر فقال لها إن العقبة تتمثل في وجود بناتها الثلاث وأضافت : فقامت المرأة بدس السم لطفلتها الصغرى في طبق من البيض المقلي بينما كانت شقيقاتها في المدرسة ، لكن المرأة عجزت عن تحمل رؤية طفلتها الصغرى وهي تتلوى من شدة الألم فهرعت بها إلى أقرب مشفى حيث توفيت قبل أن يتمكن الأطباء من انقاذ حياتها وأثناء غياب المرأة ـ الأم ـ عادت الطفلتان الآخريان إلى المنزل لتجدا طبق البيض فالتهمتاه مما أدى إلى وفاتهما في الحال .

هوامش الفصل الرابع

(١) مقدمة ابن خلدون
(٢) التاج الجامع للأصول رواه مسلم والبخاري
(٣) التاج الجامع للأصول رواه مسلم واحد
(٤) التاج الجامع للأصول رواه أبو داوود والنسائي
(٥) مقدمة ابن خلدون صفحة ٥١٩ الفصل ٢٥.
(٦) مقدمة ابن خلدون صفحة ١٠٥
(٧) مقدمة ابن خلدون صفحة ١٠٦
(٨) مجموعة ابن سينا الكبرى حلب المطبعة المارونية دون تاريخ طبعة شعبية
(٩) مقدمة ابن خلدون صفحة ٣٨٥
(١٠) نقلاً عن جريدة السفير نيسان ١٩٩٣
(١١) النبوءة والسياسة تأليف غريس هاسل ترجمة محمد السماك ، جمعية الدعوة الاسلامية . ١٩٩
(١٢) جريدة السفير ١٩٩٣/١/٢٨

الفصل الخامس

بين السحر والمعجزة

لو عدنا إلى القرآن الكريم وتحديداً إلى الآيات التي تحدثت عن اتهام الأنبياء بالسحر وجدنا أن الشعوب التي عرفت السحر أو سمعت عنه خلطت بين ما أتى به الأنبياء وما نادوا إليه من عودة إلى عبادة الله الواحد وصلاح مجتمعاتهم وبين ما عهدوه من دهاة الكهنة والسحرة والمخادعين ، فظنوا أن ما أتى به الرسل والأنبياء هو من باب السحر والخداع فحاربوا دعواتهم وحاربوهم ، لكن بعض الذين وعوا بحسهم العقلي وتمييزهم الفرق بين ما هو خير وما هو شر عرفوا أن ما أتى به الرسل والأنبياء ليس سحراً أو خداعاً فآمنوا بعقيدة التوحيد وناصروا الحق ودعاته .

والمعجزة كما يتفق العلماء على تعريفها هي خرق لنواميس الكون ... أو لقوانين الكون يعطيها الله سبحانه وتعالى لرسله ليدل على منهجه ويثبتهم به ويؤكد للناس أنهم رسله تؤيدهم السماء وتنصرهم والسماء حين تؤيد وتنصر تقف قوانين البشر عاجزة لا تستطيع أن تفعل شيئاً[1]

ومعجزات الله تتميز عن أية معجزات أخرى تمييزاً واضحاً قادراً ، فهي أولاً تأتي وتتحدى من أُرسل فيهم الرسول فيما نبغوا فيه ، لأن التحدي فيما لا ينبغ فيه القوم لا يعتبر تحدياً .

على أن المعجزة لا تأتي بخرق القوانين والتحدي وإنما توفر أسباب هذا التحدي ، بمعنى أن القوم الذين يريد الله أن يتحداهم يمكنهم من الأسباب كلها

ثم بعد ذلك يعطل الأسباب ، فلا يتم الفعل .

وإذا كانت المعجزة هي خرق للعادة مقرونة بالتحدي ولا يستطيع أحد معارضتها فقد تأتي المعجزة خرقاً للعادة ، ولكنها ليست مقرونة بالتحدي ، أي أن الله سبحانه وتعالى لا يتحدى بها البشر ولا يطالبهم أن يأتوا بمثلها ، بل إن هذه المعجزة تأتي لإثبات طلاقة قدرة الله في كونه ، بحيث لا يخضع الإنسان كل الأشياء للأسباب والمسببات .

وقد عرف ابن خلدون السحر وأوردنا تعريفه في فصل سابق وهو كما رأينا علم بكيفية استعدادات تقتدر النفوس البشرية بها على التأثيرات في عالم العناصر إما بغير معين أو بمعين من الأمور السماوية والسحر فيه من الضرر ما جعل الناس تهجره لأنه استعانة بغير الله .

وخاصية السحر ليست كخاصية النبوّة ، والأولى تستعين بقوى شيطانية أما النبوة تستعد للمعرفة الربانية ومخاطبة الملائكة ، ورياضة السحر إنما تكون بالتوجه إلى الأفلاك والكواكب والعالم العلوي والشياطين بأنواع التعظيم والعبادة والخضوع فلهذا كان السحر كفراً(٢) ..

والاطلاع على آيات القرآن الكريم يدلنا على أن هناك معجزات قام بها الأنبياء بعون ومدد من الله سبحانه ومعجزات إلهية خصها الله بذاته ، كخلق آدم وعيسى .

ولعلنا ونحن نبحث في الفرق بين المعجزة والسحر نرى أن ما قام به الأنبياء من معجزات هو المقصود طالما أننا نسعى للمقارنة بين السحر والمعجزة اللذين هما مرتبطان بالبشر من حيث أداة الفعل ومن حيث عالم المحسوسات .

وكل شيء يمكن أن يراه الانسان في عالم المحسوسات ولا يدخل ضمن معقولاته يصفه بأنه سحر ومن هنا قال العرب عن القرآن إنه سحر لأنهم سمعوه مادياً ولم يستطيعوا أن يعقلوه حسب معارف وقتهم فقالوا هذا سحر .
يقول تعالى في سورة الاحقاف الآية ٧ **﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا للحق لما جاءهم هذا سحر مبين ﴾** وفي هذا قال فرعون وقومه عن موسى عندما جاءهم بتسع آيات بينات ، وكل هذه البينات شاهدها الناس

حسّياً ، شاهدوها ضمن عالم المحسوس ولم يدركوا كيف حدثت هذه الآيات ، ولم تدخل ضمن معقولاتهم لذا قالوا عن موسى إنه ساحر[٣] .

وعلى هذا فالمعجزة عند كافة الأنبياء قبل الرسول محمد صلى الله عليه وسلم هي تقدم في عالم المحسوس عن عالم المعقول السائد وقت المعجزة .

ولنعد إلى ما ورد في القرآن الكريم من حديث حول المعجزات لندرك الفرق بينها وبين السحر وغيره من علوم الطلسمات .

يقول تعالى في سورة الأنبياء ﴿ **قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين ٦٨ قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم ٦٩ وأرادوا له كيداً فجعلناهم الأخسرين ٧٠** ﴾

من المعروف أن ابراهيم عليه السلام قد تعرض لخصومة قومه وعدائهم له بسبب تحطيمه أصنامهم ورفضه لعقائدهم الوثنية ، وكان أن اتفقوا على عقابه وكانت العقوبة الحرق بالنار . فلنتصور المنظر من خلال الواقع المحسوس الذي نعرفه ، رجل يقيّد ويوضع ضمن دائرة مشتعلة ، النار تحيط به من كل جانب وهو فوق حطب محترق ، وتتأجج النار ويخرج ابراهيم سليماً ليس في جسده أثر لحرق .

ومن خلال السياق القرآني ندرك أن ابراهيم كأي انسان خاف أو ارتعدت مفاصلة خوفاً من الحرق ، ولكنه أدرك أن الله سبحانه لن يتخلى عنه لأنه نصر دينه ، فاطمأن فؤاده عندما صار في النار ، أما كيف اطمأن ؟ فالأمر منوط بعدم حرق النار له ، وأطفئت النار بعد تأججها وخرج منها سليماً ..

إن خاصية النار كما ندركها في عالمنا الحسي حارقة ، لكنها مع ابراهيم لها شأن آخر ، لقد كان من الممكن أن تنطفىء النار لأي سبب من الأسباب كهطول المطر مثلاً لكن هذا لم يحدث وابراهيم يقع في أيديهم والنار لم تنطفىء بل ازدادت اشتعالاً ثم ألقوا به في النار فإذا بالله سبحانه وتعالى يبطل خاصية الإحراق في النار وتكون برداً وسلاماً ، فمعجزة ابراهيم ليست أن ينجو من النار وقد شاء الله أن تظل النار مشتعلة وهو القادر على إطفائها ، ثم أن يأخذ ابراهيم عياناً أمام الناس ويرمى في النار ثم يعطل قانون إحراقها[٤] .

وإذا عدنا إلى قوله تعالى ﴿ **قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على ابراهيم** ﴾ ندرك أن النار لم تتحول إلى برد بصدفة طبيعية ، إنما هناك أمر رباني من الله سبحانه وتعالى ، ونلاحظ فعل الأمر (كوني) فهو لا يقبل سوى

الطلب والأمر ، ولا يرد الأمر طالما أنه صادر من الله سبحانه وأمره إذا أراد لشيء أن يقول له كن فيكون ، ولو أن النار تُركت دون أمر الله لأحرقت لأن الحرق من طبيعتها .

ثم لو نظرنا إلى قوله تعالى برداً وسلاماً وجدنا أن الله سبحانه أردف بكلمة سلام على كلمة برد لأن العقل البشري قد يقول إن البرد يؤذي ولو أن إيذاءه أقل من أذى النار ، والبرد حسب قوانيننا الحسية المادية يؤذي وقد يصاب المرء بأكثر من مرض وإذا انتقل فجاءة من جو حار جداً إلى جو بارد ، لكن الله سبحانه قال للنار كوني برداً وسلاماً ، والسلام بالنسبة للجسد هو عدم حصول أي مكروه له ، وفي ذلك حكمة إلهية واضحة .

أما ما جاء في سيرة النبي موسى عليه السلام فإنه يحفل بالمعجزات ، ومن المعروف أن كل نبي جاء إلى قومه بمعجزة من جنس ما نبغوا فيه ، فقوم موسى عليه السلام نبغوا في السحر والفراعنة نبغوا بالسحر واعتمدوا على السحرة في شؤون حياتهم وطبّهم والعصر كله عصر سحر ، وأول ما نراه من معجزة خارقة لقوانين الواقع المحسوس إخراج موسى ليده من جيبه وقد تغيرت طبيعتها ، فهي بيضاء تشع بالنور .

ولكن هل كان موسى قادراً على أن يحول لون يده أم أنها أمر من الله حتى تكون معجزة . لنعد إلى نص الآية الكريمة التي تتحدث عن ذلك : يقول تعالى في سورة طه ﴿ **واضمم يدك إلى جناحك تخرج بيضاء من غير سوء آية أخرى ، لنريك من آياتنا الكبرى** ﴾ ٢٢ ـ ٢٣ ففي الآية أمر ونتيجة الأمر أضمم وهو من رب العالمين والنتيجة تخرج بيضاء والغاية من ذلك كله أن ندرك أن الأمر كله يعود إلى الله سبحانه وليس إلى البشر . والله سبحانه يوضح لنا الوسيلة والنتيجة وليس لموسى عليه السلام شأن في ذلك ، أما العصا فلها شأن آخر . قال تعالى ﴿ **وما تلك بيمينك يا موسى ١٧ قال هي عصاي أتوكأ عليها وأهش بها على غنمي ولي فيها مآرب أخرى ١٨ قال ألقها يا موسى ١٩ فألقاها فإذا هي حية تسعى ٢٠ قال خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى ٢١** ﴾ سورة طه . ففي هذه الآيات الكريمة نرى أن موسى يجهل تماماً ما سيؤول إليه أمر الله بشأن العصا إنه لا يعرف إلا في حدوده البشرية ، فشأن العصا بالنسبة له يرتبط بالتوكؤ عليها وهش الغنم وبعض المآرب الأخرى ، وليس شأنها بالنسبة له أن تصبح أفعى يخافها أو أن تصبح آية من آيات الله

الكبرى عندما تحصل المواجهة مع فرعون والسحرة .

يقول تعالى في سورة القصص : ﴿ **وأن ألق عصاك فلما رآها تهتز وكأنها جان ولى مدبراً ولم يعقب يا موسى أقبل ولا تخف إنك من الآمنين ٣٧** ﴾

ولو كان الأمر سحراً لما وجدت الحاجة للحديث عنه لأن السحر يرتبط بشخص وهو يدرك ما يقوم به من أعمال ، والمعجزة هنا تكمن في جهل موسى لتحويل العصا إلى حية من قبل ربه عز وجل . ولو كان الأمر سحراً لما قال له الله سبحانه لا تخف لأنه في طبيعة البشر الخوف من الحيّة أو الحذر منها ، ثم أن الله سبحانه يطلب من موسى عليه السلام أن يأخذها ويمسكها بيده فكيف ذلك وهو الخائف منها ؟ لكن الله سبحانه قال له سنعيدها إلى هيأتها الأولى أي إلى عصا ، فلا تخف فالأمر إلهي وليس من صنع البشر وقد توضحت الغاية من هذه المعجزة عندما أمر الله موسى أن يذهب إلى فرعون الذي طغى ويضع أمامه هذه المعجزة علّه يرتدع .

يقول الله تعالى في سورة طه : ﴿ **ولقد أريناه آياتنا كلها فكذب وأبى ٥٦ قال أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى ٥٧ فلنأتينك بسحر مثله فاجعل بيننا وبينك موعداً لا نخلفه نحن ولا أنت مكاناً سُوى** ﴾ .

فالآيات التي أظهرها الله أمام فرعون معجزات دلت على أن الله واحد وأن النبي موسى مبعوث من الله ليهدي من ضلوا عن سبيل الله كفرعون وأتباعه .

ومن خلال قصة موسى مع فرعون نعرف أن من الآيات التي أراها الله لفرعون آية يده وهو يخرجها بيضاء ، وآية عصاه وهي تتحول إلى أفعى ، إضافة لسبع آيات أخرى ذكرها القرآن الكريم ، قال تعالى في سورة الأعراف ﴿ **فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين ١٠٧ ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين ١٠٨ قال الملأ من قوم فرعون إن هذا لساحر عليم ١٠٩** ﴾

وهنا نصل إلى جوهر المقارنة بين المعجزة والسحر ، ففي ناموس فرعون الذي استند على معارفه بقوة السحر ظن أن ما يأتي به موسى من خوارق للعادة سحراً وليس معجزة تعود لقدرة الله سبحانه ، لقد رأى معجزة العصا أمام عينيه فظن أنها سحر فنادى أن احضروا كل سحرة البلاد ليتصدوا لعمل موسى .

يقول تعالى في سورة طه ﴿ **فتولى فرعون فجمع كيده ثم أتى ٦٠ قال**

لهم موسى ويلكم لا تفتروا على الله كذباً فيسحتكم بعذاب وقد خاب من افترى٦١ ﴾

فموسى بعد أن أدرك حقيقة معجزة الله سبحانه عرف أن ما سيأتون به من سحر هو افتراء وكذب لأنه من عمل البشر في الخداع والتزييف .

ثم يقول تعالى : ﴿ **فتنازعوا أمرهم بينهم وأسروا النجوى٦٢** ﴾ لقد أدرك السحرة أن كلام موسى هو الحق فكاد بعضهم أن يعترف بذلك حتى قبل المنافسة في حلبة الصراع .

ثم يقول تعالى : ﴿ **قالوا يا موسى إما أن تلقي وإما أن نكون أول من ألقى٦٥ قال بل ألقوا فإذا حبالهم وعصيهم يخيّل إليه من سحرهم أنها تسعى٦٦ فأوجس في نفسه خيفةً موسى٦٧ قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى ٦٨ وألق ما في يمينك تلقف ما صنعوا إنما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى٦٩** ﴾

فموسى عليه السلام خاف مما صنعوا لأنهم خدعوا أعين الناس فظن ظَنَّ الناس لكن الله سبحانه أوحى إليه أن هذه الحبال والعصي من صنع البشر بل من صنع كيدهم وخداعهم وليست هي حقيقة البتة ، لقد خُيل إليه من سحرهم أن هذه الحبال والعصي أفاعٍ تريد إلتهامه أو أذيته، لكن الله سبحانه أمره أن يلقي عصاه لتلقف كل ما صنعوا .

ويقول تعالى : ﴿ **فأُلقي السحرة سجّداً قالوا آمنا برب هارون وموسى٧٠** ﴾

ويقول تعالى : ﴿ **قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذي فطرنا فاقض ما أنت قاض إنما تقضي هذه الحياة الدنيا٧٢ إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر والله خير وأبقى٧٣** ﴾

لقد تحدى موسى السحرة فكانواأول من آمن به لأنهم هم الذين يرهبون عيون الناس ويسحرونها فلما رأوا معجزة موسى كانوا أقدر الناس على فهمها والسجود لها نظراً لما رأوه من الفرق الهائل بين قدرة الله وقدرة البشر ولما أحسوه برهبة وهو يقابل ما نبغوا فيه من السحر بما أعطاه الله له ، لقد رأوا عظمة التحدي فخروا ساجدين لأن لديهم جزءاً من العلم الأرضي في السحر ولما أحسوا بالمعجزة أحسوا بروعتها وبجلالها وحسوا بأنها من عند الله فنسوا

فرعون ووعوده وتهديداته ، لقد تلاشى كل هذا عندما رأوا المعجزة وخروا ساجدين لله(١) .

لقد أدركوا ساعة إلقاء موسى لعصاه أن ما أتى به ليس سحراً إنما هو حقيقة ، إنهم هم الأقدر بالطبع على تمييز السحر عن غيره ، ولأنهم أصحاب صنعة كما يقولون يعرفون الزيف من الحقيقة وقد كانت معجزة الله حقيقة أدركوها بأعينهم وأحسوا بها إحساساً واقعياً وليس إحساساً خادعاً أو مزيّفاً .

يقول تعالى في سورة يونس : ﴿ **فلما ألقوا قال موسى ما جئتم به السحر إن الله سيبطله ، إن الله لا يصلح عمل المفسدين٨١** ﴾ .

ويقول تعالى في سورة الأعراف : ﴿ **وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك فإذا هي تلقف ما يأفكون١١٧ فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون١١٨** ﴾

إذا فما جاء به السحرة إفك وكذب وضلال وما جاء به موسى معجزة من الله وشتان بين صنع البشر وصنع الله ، لقد كان السحرة هم الذين أراد فرعون أن يتحدى بهم معجزة الله ودين الله فإذا بهم أول من يسجد لهذا الدين ، تلك روعة المعجزة وجوهرها الذي يُميِّز عن السحر والخداع . ولعصا موسى عليه السلام معجزة أخرى ترد في القرآن الكريم واضحة بيّنة .

يقول تعالى في سورة الشعراء ﴿ **قال أصحاب موسى إنا لمدركون ٦١ قال كلاّ إن معي ربي سيهدين فاوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانغلق فكان كل فِرْقٍ كالطود العظيم ٦٣** ﴾

فالمعروف في عالمنا الحسي المادي أن الماء لا ينغلق لأن قوانين الماء هي الاستطراق أي لا يكون عالياً في مكان ومنخفضاً في مكان آخر ، لا بد أن يتساوى سطحه ، فإذا ضرب موسى بعصاه البحر فهو لا يستخدم قوانين العالم المادي الأرضي ولا قوانين الماء ولا قدرات البشر المحدودة لأنه رفع الأمر إلى الله سبحانه وتعالى ، ومن هنا تكون القدرة والفعل فينشق البحر ، لقد نقل موسى عليه السلام المسألة من قانون الانسان أو البشر إلى قانون الله سبحانه وتعالى ولذلك لا عجب فيما سيحدث ولو خالف كل قوانين البشر ، قال تعالى ﴿ **كلا إن معي ربي سيهدينِ** ﴾ الشعراء ٦٢ وتستمر معجزات الله سبحانه عن طريق رسله وأنبيائه ليثبتوا أنهم جاؤوا بالهدى وبالرسالات من عند الله

ويثبتوا الإيمان في قلوب الناس وليتحدوا أقوامهم بما جاؤوا به .

فالنبي عيسى عليه السلام عدا عن معجزة خلقه وحمل مريم له بقدرة الخالق جاء بمعجزات تعود لقدرة الله سبحانه ، وقد تحدى قومه في شيء نبغوا فيه فجاء لهم بما تجاوز علمهم ، وكان تحديه من جنس ما نبغوا فيه .

لنعد إلى قوله تعالى ﴿ **ورسولاً إلى بني اسرائيل إني قد جئتكم بآية من ربكم أني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله وأبرىء الأكمة والأبرص وأحي الموتى بإذن الله وأنبِّئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين** ﴾ آل عمران ٤٩ .

لقد أيد الله عيسى بما ذكر من الآيات لأن الأطباء لم يقدروا على إبراء الأكمة والأبرص وإحياء الموتى . وليست المعجزة هنا من صنع السيد المسيح عليه السلام بل هي من صنع الله ودليل ذلك قوله بإذن الله ، وبدون إذن الله لن يقدر المسيح على فعل شيء من هذا القبيل .

ويأتي ذكر هذه المعجزات في سورة المائدة بقوله تعالى : ﴿ **إذ قال الله يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك إذ أيدتك بروح القدس تكلم الناس في المهد وكهلاً ، وإذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والانجيل وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذني فتنفخ فيها فتكون طيراً بإذني وتبرىء الأكمة والأبرص بإذني وإذ تخرج الموتى بإذني وإذ كففت بني اسرائيل عنك إذ جئتهم بالبينات فقال الذين كفروا منهم إنْ هذا إلا سحر مبين** ﴾ ١١٠

ونرى من خلال المقطع الأخير للآية الكريمة أن بعض قومه قد كفروا بما جاء واعتبروه سحراً لأن ذلك خرق للقوانين المتعارف عليها عندهم وهم الذين نبغوا في الطب وبرعوا في صناعته وغاب عنهم جوهر المعجزة لأن المسيح لم يفعل ذلك بإرادته وقوته إنما بإرادة الله وحده وقوته التي لا تقارن .

القرآن الكريم معجزة لكل عصر

عرفنا أن المعجزات الربانية التي رافقت النبي ابراهيم والنبي موسى والنبي عيسى عليهم السلام هي معجزات تحدت عصرها فيما كان عليه من النبوغ في شأن من شؤونه ، وقلنا إن موسى عليه السلام تحدى السحرة بمعجزة الحقيقة أمام الخداع ، وأن عيسى تحدى قومه بمعجزة الطب لأنهم بلغوا فيه مبلغاً كبيراً .

وعندما نأتي إلى البعثة المحمدية نرى أن الأمر مختلف ، صحيح أن القرآن الكريم تحدى العرب بلغتهم وفصاحتهم وبلاغتهم فبُهتوا وقالوا عنه إنه سحر يؤثر ، لكن هذه المعجزة لم تقتصر على التحدي اللغوي البلاغي والبيان إنما كانت المعجزة أعم وأكبر بحيث تحدت العصر الذي كان عليه العرب وتحدت عقل الإنسان مهما بلغ من التطور وحتى قيام الساعة ، إن التحدي دائم ومستمر متجدد وهنا تكمن معجزة القرآن الكريم التي اختلفت عن كل المعجزات التي رافقت نبوة الانبياء وكانت بعض وسائلهم التي منحها إياها الله لاقناع الكفرة بأن رسالة الأنبياء حق وليس باطلاً.

وإذا نظرنا إلى المعجزات السابقة وجدناها فعلاً من أفعال الله ، وفعل الله يمكن أن ينتهي بعد أن يفعله الله سبحانه ، البحر انشق لموسى ثم عاد إلى طبيعته ، النار لم تحرق ابراهيم ولكنها عادت إلى خاصيتها ، ولكن معجزة القرآن الكريم صفة من صفات الله وهي كلامه والفعل باقٍ بإبقاء الفاعل له والصفة باقية ببقاء الفاعل نفسه .

فالقرآن الكريم معجزة الله لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم وليست هي معجزة الرسول نفسه صنعها أو كتبها وهو المعروف عنه أنه لا يقرأ

ولا يكتب . ولو كانت هذه المعجزة من صنع محمد كرجل لاستطاع العرب تحديها وهم الفصحاء والبلغاء . لكنهم ورغم بلاغتهم عجزوا عن مجاراتها وقالوا إن القرآن سحر سَحَر هؤلاء الذين آمنوا بالله الواحد واعتنقوا الاسلام ، وحجتهم ضعيفة هزيلة لأنه لو كان القرآن سحراً لسحرهم أجمعين ولم يقتصر على أناس دون أناس .

والقرآن الكريم كما قلنا معجزة لكل عصر ، ولم يقتصر على عصر دون عصر . وكل عصر يطرح أسئلته فيجد أجوبة عليها في القرآن الكريم . وإن لم تكن صريحة فإنها تفتح أبواباً واسعة للبحث عنها بحرية كاملة ومن ثم الوصول إليها دونما عناء ، إن للقرآن عطاء لكل جيل يختلف عن عطائه للجيل السابق ذلك أنه للعالمين ولا يقتصر على أمة بعينها وإنما هو الدين الكامل لكل البشر ، ولو أفرغ القرآن عطاءه في قرن ما لاستقبل القرون الأخرى بلا عطاء وإذا كان القرآن الكريم قد شكل تحدياً لغوياً لفصحاء العرب وبلغائهم فإنه أعجزَ العقول والنفوس بما حواه من حقائق العلم المتعلقة بالكون المحيط بالإنسان . فالشمس غير مستقرة أو ساكنة والكواكب تسير في أفلاك دقيقة وكل ذلك ضمن توازن دقيق . وقوانين الكون والعلم لا تتصادم مع ما جاء في القرآن الكريم .

وحياة الانسان منذ كان جنيناً في رحم أمه وحتى موته فصلها القرآن الكريم وفتح أمام العقل البشري أسساً علمية واضحة لقد قال تعالى ﴿ **ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ، ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ، ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ثم انشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين** ﴾

وجاء العلم ليثبت صحة ما جاء في القرآن الكريم .

ثم إن القرآن الكريم يمزق حواجز الغيب في المكان وفي الزمان الماضي والزمان الآتي لقد تحدث عما جرى في الأزمان الغابرة وفضح ما كان عليه اليهود وغير اليهود وكل ذلك دون مصدر تاريخي متسلسل أو مكتوب أو محفوظ ، لقد جاء القرآن بأدق التفاصيل عما حدث في الأقوام الغابرة منذ آدم ونوح وعاد وثمود وغيرهم .

وتحدث عن المستقبل واخترق بذلك حاجز الزمن فقال (**غلبت الروم في ادنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون** ﴾ وقال سبحانه ﴿ **فإذا جاء**

وعد الآخرة ليسؤوا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة وليتبروا ماعلوا تتبيرا ﴾ الاسراء ٧

وكشف خبايا النفس البشرية ووضع أسرارها أمام الأبصار والعقول ، وكان الاعجاز والمعجزة المدهشة ، وكان التحدي الإلَهي المعجز وكان العجز البشري أمام كل ذلك ، أما الاسراء والمعراج فهي المعجزة الكبرى التي تحدى بها الله سبحانه كل العصور وكل العقول وكل الأقوام .

لقد جاءت هذه المعجزة لتخترق كل قوانين الأرض وما دام الله سبحانه قد خرق للرسول قوانين الأرض فهو قادر على أن يخرق له قوانين السماء .

ولو كانت المسألة ترتبط بقدرة الإنسان كإنسان دون عون إلهي كما كان الإسراء وغير الاسراء فهي تعلو على قدرة البشر مهما أوتوا من علم ومهما برعوا في فنون السحر والخداع ومهما استعانوا بقوى الجن والشياطين ..

وليثبت الله سبحانه معجزته فقد أوحى لرسوله الكريم أن يخبر قريش بقوافل التجارة الآتية والذاهبة ويصف بيت المقدس كأنه مجسّدٌ أمامه بكل ما فيه من أبواب ومساحات فكان الأمر بالنسبة لهم شيئاً لا يتحمله العقل البشري ويعجز عن اتهامه بالباطل أو الخداع ، لأنه جاء بحقائق وأثبتتها الأحداث والأيام بعدها ، لقد صدقه من صدقه وكذبه من كذبه وسيان الأمر فالمعجزة حدثت وسبقت التصديق أو التكذيب .

إن هذه المعجزة تعلمنا أن الله سبحانه وتعالى قادر على كل شيء، وهو موجود في كل مكان، يكلم نبياً وهو على الأرض ويكلم نبيه وهو عند سدرة المنتهى، ولو كان الله سبحانه وتعالى موجوداً في السموات وحدها ما كلم نبياً له على الأرض، ولو كان موجودا في الأرض وحدها ما كلم نبياً عند سدرة المنتهى.

والله سبحانه أتاح لرسله فرص الاطلاع على المظاهر الكبرى لقدرته حتى يملأ قلوبهم ثقة فيه واستناداً إليه إذ يواجهون قوى الكفار المتألبة ويهاجمون سلطانهم القائم.

إن معجزات الرسل التي تمت على مشهد من المؤمنين لتثبتهم أما رسول الله صلى الله عليه وسلم فكونه خاتم المرسلين فقد اختص وحده بالصعود إلى السماء، أما المعجزة الخالدة الباقية فهي في القرآن الذي يعطي عطاء لكل جيل يختلف عن عطاء الجيل الذي سبقه.

ومعجزة الاسراء لم تكن لتتحدى العقول في جميع العصور لو لا أنها خارقة لكل قوانين العلم التي اكتشفت والتي لم تكتشف بعد، ولو افترضنا اليوم أن الاسراء والمعراج حصلا في هذا العصر عصر الصواريخ والمركبات التي تصل سرعتها في الفضاء الخارجي أكثر من ٢٠ ألف ميل في الساعة لبقيت حادثة الاسراء معجزة بكل ما تعني الكلمة من معنى، فالمريخ والزهرة كوكبان بعيدان عنا مئات الملايين من الأميال واستطاع العلم الحديث أن يوصل مركبات إليهما. ولكن الوصول لم يتم إلا بعد قطع ملايين الأميال والليالي. فالاسراء والمعراج المعجزة يتم في ليلة وتُقطع فيه عوامل دنيانا وكوننا وعوالم أخرى وأكوان نجهلها.

إن ذلك لا يتم بقدرة إنسان مهما فكر ومهما تقدم علمه. إنها معجزة إلهية تتحدى وأمر رباني معجز. وبعد كل ذلك نتساءل أين موقع السحر من هذه المعجزة الإلهية . الفرق كبير ولا مجال للمقارنة، ولعل عظمة الحدث تعلو على ما قد يأتيه الانسان من سحر أو ما شابه ذلك ثم إذا كان السحر قادراً على فعل مثل هذا فما الغاية وما الهدف ؟ وما الوسائل لذلك كله، هل الوسيلة استعانة بالشياطين وهم في نفس الوقت محكومون بقدرة خالقهم أم هي استعانة بقوى أخرى ولا قوى في الوجود إلا وهي مقيدة بحدودها، غير قادرة على التحدي واختراق السموات. ثم لماذا لم يجرؤ واحد في الوجود كله على أن يدعي الرحلة إلى السماء وقبلها الرحلة بين مكة وبيت المقدس في بضع ليلة وليست ليلة بكاملها ؟ إن السحر الذي يقوم على خداع البصر قادر على فعل فعله في حدود قوانين أرضية، ورغم ذلك يبقى في نطاق الخداع وإيهام الناس بقلب الأمور والحقائق، والحقائق تبقى بجوهرها حقائق.

أما الاسراء والمعراج فهي حقيقة المعجزة، حقيقة الواقع الالهي والقدرة الربانية الخارقة، وتبقى أمراً خاصاً بالخالق ليس للإنسان المحدود قدرة على رفضها أو حتى السؤال عن كيفيتها لأنها تبقى في نطاق المعجزة الإلهية وليس في نطاق العمل البشري المحدود.

هوامش الفصل الخامس

١) محمد متولي شعراوي معجزة القرآن الكريم منشورات دار النصر بيروت دمشق صفحة ٨ .

٢) مقدمة ابن خلدون.

٣) محمد شحرور الكتاب والقرآن ص ١٨٤ ـ ١٨٥ .

٤) محمد متولي شعراوي معجزة القرآن الكريم ص ٩ .

٤) محمد متولي شعراوي معجزة القرآن الكريم ص ١١ .

خاتمة المطاف

الاسلام يتناقض مع الأساطير، لا لأنه يرفضها فقط، إنما لأنه بني على حقائق العقل والمنطق، يحاور العقل حواراً حراً ديموقراطيا إن جاز التعبير، ويترك حرية الخيار والاختيار بأن يقبل المتحاورون أو يرفضون.

فهو والأسطورة على طرفي نفيض لأن الأسطورة تجمع بين بعض الحقيقة وعالم الوهم والتخيّل والاسلام يكرس الحقيقة دون زيادة أو نقصان، هي تفسر تشتت العقل البشري الديني، بينما هو يركز العقل ويحميه من التشتت والعجز والاذلال.

فما بال أقوام تخيلوا العنقاء وهي غير موجودة، وما بال شعوب برمتها اعتقدت بالغول وهو ليس موجود. وكم من أمم آمنت بوجود الأشباح وهي تخيّل نفسي ليس أكثر أليست هذه بعض أجزاء الأساطير وإن بدت مفردات بعيدة عن عالم الأسطورة كما عرفها الدارسون، والمتخصصون بدراسة تراث الشعوب وأساطيرها.

في أساطير اليونان صراع ملحمي بين البشر بعضهم بعضاً، وصراع بين آلهة متخيلة منقسمة على بعضها. تلك تحارب مع أولئك، والأخرى تدافع عن هؤلاء. وكلها لا تعبر إلا عن خيال بشري وجنون إنساني. قالوا عنها إنها تراث شعب عبقري، وما العبقرية إن كرّست الفكر في تخيل آلهات شتى تصنع ما يصنعه البشر، تبوّل وتبصق وما إلى ذلك بل يتفوق عليها البشر لأنه عاقل وهي وهم.

في أساطير الفراعنة آلهات تغضب من البشر، ثم ترضى، تدمر ثم تعمر لا

لسبب إلا فتنة اصطنعها إله أو آلهات أخريات. وأرادت بها الكيد للآخرين من بني جنسها، وآلهة تدمر الأرض لمجرد التدمير.

وفي أساطير كنعان آلهة تُقتَل ثم تحيا لترمز إلى الخصب كما يقول الباحثون، وآلهة تعشق وتزني فتجنب البقر والثيران وقسْ على ذلك من هذا التراث الذي عظموه وعظموا شعبه، وأصبح مقياس عظمة الشعب أي شعب بعظمة أساطيره الملحمية الأدبية والفلسفية. لن نجادل طويلاً في كون الاسلام جاء دستوراً كاملاً للحياة لأن الأعلم منا والأكثر عطاء كتبوا عشرات الكتب والدراسات ليثبتوا لمن سوّلت لهم أنفسهم بالشك والهجوم أن الاسلام جاء دستوراً كاملاً.

لقد رفض الاسلام العقلية الجاهلية لأنه استند إلى المنهج القرآني القائم على حوار العقل والمنطق والوعي الداخلي والخارجي. رفضها بكل جوانبها السلبية، وعلم الانسان العربي وغير العربي كيف يتحمل العقل مسؤولية الاقناع والقناعة وباعتبار أنّ الاسلام يبرهن بالحجة القاطعة لماذا هو يرفض ما لا يوافق العقل فقد رفض أساطير الشعوب القديمة وسخر منها، وسخر من الخرافات التي سادت حياة الجاهليين. وحدد موقفه العقلي الرافض لكل المعتقدات المنافية للذوق والحدس العلمي والمخالفة لأبسط قواعد المنطق السليم.

لقد تقصد علماء الغرب المفلسون أن يركزوا على أهمية الأسطورة باعتبارها الماضي المجيد للأمم والشعوب، فالشعب الذي ليس له أسطورة ليس له حضارة. وراحوا يضخمون في العقول هذا الوهم حتى باتت الأسطورة والبحث عنها هاجس المهتمين ومحبّي الاكتشافات التراثية وغيرها. وانطلت ألاعيبهم على العقول، فتخبط الناس في عقائدهم. رفضوها وشككوا فيها وبقيمها السامية ولما كان الشرق منبع الأساطير، ومنبع العقائد رفعوا من قيم الأسطورة وحطوا من قيم العقيدة وصار الناس يتساءلون أللأساطير أفضلية البحث والكشف أم للعقيدة ؟ وبمجرد طرحهم لهذا السؤال سقطوا في لعبة المستشرقين ومكائد الغرب المفلس من كل عقيدة ومن كل تراث.

لننظر كم من كاتب وباحث كرس مقولات الحضارة الفرعونية وربطها بأساطيرها العظيمة !! وكم من باحث صرخ بأن المصريين القدماء أسبق الناس قاطبة في صنع الأسطورة والخيال الأسطوري ؟ وانجروا إلى المناداة

بالفرعونية ونبذ العروبة والاسلام وفصل مصر عن عالمها ومحيطها.

لننظر كم من مفكر ودارس ناطح الرؤوس ليؤكد أن الفينيقيين صنعوا أساس الأسطورة اليونانية وانجروا إلى المناداة بالفينيقية ونبذ العروبة والاسلام وقس على ذلك في كل فسيفساء البلاد العربية.

وخلطوا بين الأسطورة والحضارة ودمجوا بين الوهم والأبنية الشامخة حتى يضيع لدى الناس مقياس الحضارة والتقدم الحضاري. يضيع الطب بالسحر، ويختلط الايمان مع تقديم القرابين البشرية إكراماً وإجلالاً..

لقد خلطت الشعوب قديمها وحديثها بين ما هو إلهي وما هو بشري. فراحت تجسد الآلهة، وتصنع لها تماثيل وتحيطها بهالة من القصص والحكايا والخوف والرعب، والحب والكره، وربطت بها مصير الانسان ومصير البحار والأمطار والأرض والشمس والقمر والنجوم، وبسبب من تلاقح اللغات والثقافات فقد أدخلت معتقدات الخيال الشعبي كل الخرافات والأساطير إلى العقل العربي الجاهلي حتى راح يتخبط في ضلالات بعيدة عن المنطق استحق بسببها وبسبب إيمانه لها أن يسمى بالجاهلي.

ويأتي الاسلام ليدحر الأصنام ويدحر معها كل تلك المخلفات الأسطورية والخرافية. ويجعل العقل محكاً للنقاش وفيصلاً في الوصول إلى الحقيقة وتحليل الظواهر الطبيعية التي يتعرض لها بصره وحياته وتفاعله معها.

ومما زاد الأمر سوءاً أن شعوب الأرض أعطت للقوى الخفية سلطاناً من خلال توهّمها أو تخيلها غير المحدود، قالوا إن الجن يتلبس الانسان فيحيله إلى إنسان آخر قد يصبح مجنوناً أو عبقرياً، وما عرفوا أن الوهم الذي رسخ في عقولهم تصور الجن وعدوانيته تجاه بني البشر فجاءهم القرآن ليوضح أنْ ليس للجن سلطان على بني البشر، وقالوا عن القتل والقتيل وعن جنيّة يقال لها (الهامة) تخرج من رأسه تطالب بأخذ الثأر من القاتل. وما أدركوا أن إشباع غريزة الثأر حوّلت أوهامهم إلى معتقدات يؤمنون بها. وما أدركوا أن الذي مات مات و[illegible]صبح جثة لا حول لها ولا قوة، وجاء القرآن ليوضح أن ما اعتقدوه ما هو إلا وهم من أوهام الجاهلية التي لا تشبع أهواءها إلا بالصراع القبلي، والقتل من أجل أتفه الأمور وأبسطها.

لقد تفاعلوا مع طبيعة الصحراء تفاعلاً سلبياً فخافوها، وراحوا يشيعون التشاؤم بين أبنائهم. رأوا البوم والغراب والثعابين وغيرها من الهوام

ففسروا لحركاتها ووجودها في أوقات محددة ولأصواتها ما تعلموه وما انعكس في نفوسهم من الشؤم والحذر، رأوا في بعض الشجر قدسية مّا، اختلطت بالرعب تارة والمحبة تارة أخرى. فظنوا فيها الظنون وانعكس التقديس فصار عبادة. لم يتورعوا في تقبل تجلي المقدّس في الشجر أو الحجر رغم أنهم كانوا يدركون أن الشجر أو غيره من الأشياء هي رموز لتجليات مقدسة.

وفي مسار النفس البشرية البدائية ظهر الميل إلى العيش مع كل مظاهر الطبيعة على أنها مقدسة. واعتقدوا أن القدسي فيها هو القدرة وفي النهاية يساوي الحقيقة، لقد استغل هذه التجليات المزعومة أناس سيطر عليهم حس النفع الدنيوي فنصبوا أنفسهم كهنة وسدنة، ووظفوا النساء لتكون لهم وسيلة في تصدير توهماتهم وتخيلاتهم. وظن الانسان أن الوهم حقيقة تلبي الرغبة والحاجة للمعبود فأدخلوا الشياطين والجن والكائنات غير المرئية في أساطيرهم المرتبطة بالموجودات فالجن يخدمون، لا يرفضون طلباً لهؤلاء السدنة والأوصياء على الدين.

ورأوا صخرة ذات مواصفات متفردة، منحوتة بفعل عوامل الطبيعة والبشر. فتقربوا منها وعبدوها تقرباً لرموزها وظلالها. ألبسوها الحرير الفاخر. زينوها وذبحوا عندها القرابين، فجاء الاسلام ليهدمها ويهدم معها الكهنة والكاهنات. قطع كل شجرة يقام حولها اللبس والاشراك. وأخيراً أدرك الناس أن تلك المقدسات ما كانت إلا كذباً وادعاء وبهتاناً. وعرف الناس أن هؤلاء الكهنة يعملون فقط لجمع الذهب والفضة أو للتعيّش من وراء استعطاء بطريقة مقبولة.

لقد ذهب الجاهليون والبدائيون كل مذهب في اختراع الأدوية الموهمة بجدواها. فراحوا يعالجون مرضاهم بما هو محرم. وما هو خبيث، فقتلوا الحيوانات وبعض الحشرات المسالمة لتكون دواء لأمراض بعضهم فجاء الاسلام يبين لهم أن الخبيث لا يمكن أن يكون شفاء من مرض بل هو مرض فوق مرض. لقد أودت تصرفاتهم تلك بحياة الكثيرين من الناس دون مبرر أو سبب عقلي أو منطقي.

وأشاعوا أن الأودية المنتشرة في الصحراء هي مساكن للجن وللشياطين وأن من يريد أن يصبح نابغة عصره وعبقرياً عليه اللجوء إليها ليصبح عبقرياً،

راحوا يزعمون أن الشياطين تعلمهم الشعر وتوحي لهم. فجاء الاسلام ليوضح أن الشعراء يكفرون ويفسدون ويقولون غير الحقيقة، إلا من سلم لسانه وقلبه ودافع عن الحق والمنطق والعدالة وكرس قوله في سبيل الجهاد والدفاع عن عقيدته الاسلامية وظنوا أنهم محكومون بكل تصرفاتهم ومعتقداتهم لقوى شيطانية وجنية وقوى النجوم والكواكب. ربطوا الموت بسقوط الشهب فتشاءموا، وربطوا كسوف الشمس وخسوف القمر بموت العظماء والزعماء، فجاء الاسلام ليبين لهم أن الكسوف والخسوف من آيات الله. وما على العاقل إلا التدبّر في هذا الكون والرجوع دوماً إلى عظمة الخالق.

وأخيراً لقد أراد الله سبحانه وتعالى أن يدعم مواقف أنبيائه فوهبهم معجزات تدحض مزاعم أعداء العقيدة ويدرك العاقل أن المعجزة التي هي خرق للعادة ولقوانين الحياة المادية ما كانت لتحدث دون إرادة الله سبحانه وتعالى، وهي معجزة لأن البشر يعجزون عن الاتيان بمثلها. قد يسحرون وقد يخدعون العيون بقلب أشكال الأشياء ولو للحظات ولكن الحقيقة المعجزة ليست خداعاً وليست تلاعباً بل هي صنعة الله القادر على كل شيء.

والحمد لله رب العالمين

المصادر والمراجع

١ ـ القرآن الكريم.
٢ ـ السيرة النبوية.
٣ ـ صحيح البخاري/ وصحيح مسلم.
٤ ـ التاج الجامع للأصول.
٥ ـ المنجد.
٦ ـ صموئيل هزي هوك. منعطف المخيلة البشرية، ترجمة صبحي حديدي، دار الحوار اللاذقية ط١ ١٩٨٣ .
٧ ـ ترجمة سامية اسعد. الأسطورة في الأدب الفرنسي. مجلة عالم الفكر الكويتية المجلد ١٦ ـ ١٩٨٥ .
٨ ـ إلياد. جوانب من الأسطورة ١٩٦٣ نقلاً عن مجلة عالم الفكر الكويتية المجلد ١٦ ـ ١٩٨٥ .
٩ ـ خلدون الشمعة. مدخل إلى مصطلح الأسطورة. مجلة المعرفة السورية العدد ١٩٧ ـ ١٩٧٨ .
١٠ ـ أحمد أبو زيد. الرموز والأسطورة والشعائر. مجلة عالم الفكر الكويتية المجلد ٩ عدد ٤ شباط ١٩٧٩ .
١١ ـ شوقي عبد الحكيم. الفولوكلور والأساطير العربية، دار ابن خلدون، بيروت دون تاريخ.
١٢ ـ انيس فريحة. ملاحم واساطير من الأدب السامي، دار النهار، بيروت ط١ عام ١٩٦٧ .
١٣ ـ د. عبد الغني زيتوني. الوثنية في الأدب الجاهلي، وزارة الثقافة السورية، دمشق ١٩٨٧ .

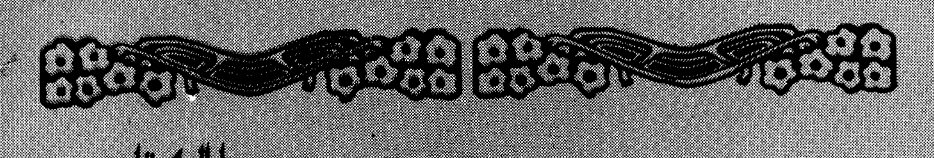
١٤ ـ عبد الوهاب النجار. قصص الأنبياء، دار الخير، دمشق طبعة ٥ .
١٥ ـ مقدمة ابن خلدون.
١٦ ـ فريدريك دارلين. الحكاية الخرافية، دار القلم، بيروت ط١، ١٩٧٣ .
١٧ ـ الملل والنحل الشهرستاني
١٨ ـ الروح ابن قيم الجوزية، مكتبة المتنبي، القاهرة
١٩ ـ الكسندر هجرتي غراب. علم الفولكلور، ترجمة رشوى صالح القاهرة. دار الكاتب العربية ١٩٦٧ .
٢٠ ـ نمر سرحان موسوعة الفولكلور الفلسطيني، الجزء الخامس.
٢١ ـ مجلة التراث الشعبي العراقية، العدد الثاني ١٩٨٠ .
٢٢ ـ اعراب القرآن وبيانه، محمد علي طه الدرة. دار الحكمة، بيروت ـ دمشق ١٩٨٩ .
٢٣ ـ الكتاب المقدس (التوراة) العهد القديم.
٢٤ ـ مجموعة ابن سينا الكبرى طبعة شعبية، حلب المطبعة المارونية دون تاريخ.
٢٥ ـ سحر بارنوخ.
٢٦ ـ شمس المعارف.
٢٧ ـ النبوءة والسياسة. غريس هاسل. ترجمة محمد السماك، جمعية الدعوة الاسلامية/ ليبيا ١٩٨٩ .
٢٨ ـ جريدة السفير ٢٨/ ١/ ١٩٩٣ .
٢٩ ـ محمد متولي شعراوي/ معجزة القرآن الكريم/ منشورات دار النصر، بيروت، دمشق ١٩٨٧ .
٣٠ ـ محمد شحرور، الكتاب والقرآن

كتب للمؤلف

١ ـ من الجرح يبتدىء البرق ـ مجموعة شعرية ـ اتحاد الكتاب العرب ـ ١٩٧٨ .
٢ ـ الاغنية الشعبية الفلسطينية ـ دراسة ـ دار الجليل ـ ١٩٧٩ .
٣ ـ الفكرة الصهيونية والأدب العنصري ـ دراسة ـ دار الامام البخاري ـ ١٩٨٠ .
٤ ـ مسافر وزادي معي ـ مجموعة شعرية ـ اتحاد الكتاب العرب ـ ١٩٨٣ .
٥ ـ المعتقدات الشعبية في التراث العربي بالاشتراك مع محمد السهلي ـ دراسة ـ دار الجليل ـ ١٩٨٦
٦ ـ أغاني والعاب الأطفال في التراث الشعبي ـ دراسة ـ دار الجليل ١٩٧٨ .
٧ ـ الميثولوجيا الكنعانية والاغتصاب التوراتي ـ دراسة ـ دار الجليل ١٩٨٨ .
٨ ـ بروتوكولات صهيون من التنظير إلى التدمير ـ دراسة ـ دار قتيبة ـ ١٩٨٩ .
٩ ـ الوثنية في الديانة اليهودية ـ دراسة ـ دار قتيبة ـ ١٩٨٩
١٠ ـ التربية الصهيونية من عنصرية التوراة إلى دموية الاحتلال ـ دراسة ـ دار قتيبة ـ ١٩٨٩

١١ ـ منهج الجهاد القرآني ـ دراسة ـ جمعية الدعوة الاسلامية ـ ليبيا ـ ١٩٨٩ .
١٢ ـ الانسان في ميزان القرآن، مؤسسة مي للنشر بيروت ١٩٩٠ .
١٣ ـ العرس الفلسطيني ـ دراسة ـ دار المبتدأ ـ ١٩٩٣ .
١٤ ـ عز الدين القسام ـ من سلسلة المكتبة الوطنية ـ دار المبتدأ ـ ١٩٩٣ .
١٥ ـ البيت الشعبي الفلسطيني ـ من سلسلة المكتبة الوطنية ـ دار المبتدأ ـ ١٩٩٣ .

الفهرس



هذا الكتاب

الاسلام دين علم يحارب الخرافة والاسطورة والوثنية والسحر والشعوذةوكل ماينأ في العقل والتحليل المنطقي.

الخرافة دليل تخلف. والسحر خداع نفوس وتزييف حقائق. والشعوذة سخرية من العقول، والاسطورة بغضاء وحرب بين ما اطلقوا عليه ارباباً وآلهات.

والقرآن الكريم حثّ على التقدم، كشف للحقائق وسبيل للصدق. احترام للعقل والروح والجسد. ووحدانية تتجلى في كل مخلوق مهما كبر شأنه او صغر. عودة الانسان، اي إنسان لمنطق القرآن الكريم يُخلّص من الجهل والجاهلية وينقذه من الخداع والزيف، يُنظّف العقل من ادران التخلف، يربط الوجود البشري بخالق قادر مسيّر للكون بكل دقة وتقدير.

ودار حطين إذ يسرها ان تقدم هذا الكتاب بين ايدي القراء يحدوها الأمل في ان تصل إلى غايتها في الكشف عن سبل الوعي الاسلامي، والأخذ بايدي المتعطشين لطريق الحق والعلم والمعرفة. الباحثين عن المنهج الباني للحياة. الساعين إلى توجيه البشرية نحو النور والصدق والعمل الجاد النافع والمفيد.

هي كلمتنا دعوة لمحاربة التخلف، والتخلص من الوهم والشطط في التصور والقول. دعوة للتبصّر في آيات القرآن الكريم والسنة الشريفة دعوة للأخذ باسباب التقدم الحضاري الواسع، والابتعاد عن كل معوّقات الزحف نحو عالم افضل عالم يوازن بين ما للمادة وما للروح.

الناشر

